الطّاهر بنجلّون

الشّرارة

انتفاضات في البلدان العربية

ويليها **بالنّار**



المركز الثقافي العربي

الطّاهر بنجلّون

الشَّرارة

انتفاضات في البلدان العربية

ويليها

بالنّار

ترجمة: حسين عمر

المركز الثقافي العربي

الطّاهر بنجلّون

الشَّـرارة

ويليها **بالنّــار**

الكتاب

الشّرارة ويليها بالنّار

المؤلف

الطّاهر بنجلّون

ترجمة

حسين عمر

الطبعة

الأولى، 2012

عدد الصفحات: 176

القياس: 14 × 21

الترقيم الدولي:

ISBN 9953-68-545-2

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01 750507 ـ 01 352826

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

الشرارة

العنوان الأصلي للكتاب:

L'ÉTINCELLE

Révoltes dans les pays arabes

بالنّار

العنوان الأصلي للكتاب:

PAR LE FEU

الشَّرارة

انتفاضات في البلدان العربية

مقدّمة

غالباً ما نسمع في النقاشات الجارية في البرامج التلفزيونية أو الإذاعية شجب "صمت المثقّفين العرب". منذ أن عاش العالم العربي في تنوّعه وتعقّده في ظلّ دكتاتوريات متباينة - لما يقارب نصف قرن - لم يلزم المثقّفون الصمت ولم يستسلموا للعيش بذلٍّ ومهانة. وقد دفع الكثيرون ثمن التزامهم سنواتٍ من السجن المصحوب بأبشع صنوف التعذيب الساديّ والحرمان الشديد. وهناك قائمة طويلة بمَنْ فقدوا حياتهم دفاعاً عن حقوق الإنسان. جريمتهم الوحيدة هي مطالبتهم بالعدالة والحرية للمواطن لكي يتمكّن الفرد ككائنٍ فريد ومتميّز من التعبير عن كيانه وينال الاعتراف به. كُتِبَ العديد من الكتب، حُظِر معظمها وتُرجِمَ القليل منها. كما تجرّأت وسائل إعلامية في مصر ولبنان والجزائر والمغرب بانتظام في أعمدتها الصحافية وبرامجها على وصف وإدانة النظم السياسية التي اعترفت في الأشهر الأخيرة بإفلاسها وأقرّت به من خلال

استقالة أو فرار حاكمين مستبدين كانا متشبّثين بالسلطة لأمدٍ طويل. إذاً، من فضلكم، فلنكفّ عن هذا الشجب للذات، الذي لا أساس له: "المثقّفون العرب لا يتحرّكون". هم لم يتحرّكوا فحسب بل وعرّضوا أنفسهم لمخاطر لم يعرّض أيّ مثقّفٍ غربيٍّ نفسه لها قطّ.

لقد حرصتُ على كتابة هذا الكتاب الموجز لأشرح ما يحدث اليوم في العالم العربي. فإذا لم يستطع أحدٌ التنبّؤ بهذا الربيع الثوروي، إلا أننا استطعنا أن نقرأ في السنوات الأخيرة الكثير من العلامات المبشّرة به. إنّ العديد من المقالات التي كتبتُها في العقد الأخير في الصحافة العالمية وكذلك زيارتي إلى ليبيا في العام 2003، أتاحت لي اكتشاف سخطٍ عامّ وسط الشعوب العربية، ضحايا أنظمة لا يمكن القبول بها. إن لصبر الشعوب حدوده، وكان لا بد أن يطفح الكيل: فطفح وبلغ السيل الزُبى...

إن أكبر انتصارٍ لهذا الربيع يأتي من نضجه. لقد خرج الناس إلى الشوارع بطريقة عفوية وأصرّوا على المضي حتى النهاية من دون أن يأتمروا بأوامر أيّ قائدٍ أو زعيم حزبٍ أو حركة دينية. هنا يكمن الانتصار: ثورة طبيعية على غرار ثمرة يانعة سقطت ذات يومٍ شتوي من تلقائها، مسقطةً معها ثماراً أخرى: شرعت الأشجار تتراقص وكأنّها في احتفالٍ بهيج. ليس بوسع أحدٍ الاستحواذ على هذه الحركة التي امتدّت

أمواجها المتلاطمة بعيداً جداً. لقد وصلت إلى الصين وربّما ستبلغ ذات يومٍ الضواحي المهمّشة لأوروبا.

أخيراً، لقد دلّ هذا الربيع على فشل التيار الأصولي، حيث غاب ناشطوه وفوجئوا بحجم الاحتجاجات. اجتاحت قيم جديدة - قديمة حقل المعارضة العربية: الحرية، الكرامة، العدالة، المساواة. لقد فشل "الإعلام الأصولي"، وكنّس الفيسبوك والتويتر والانترنت وأشكالٌ جديدة للتفكير الخلاّق والعمل السياسي الخطاب المسكّن والبالي والغبي للتيار الأصولي، الذي كان يستند في انتشاره على اللاعقلانية والتعصّب والتزمّت. لم تكن هناك في التظاهرات العارمة أيّ شعارٍ ضدّ الآخرين أو الأجانب أو الأوروبيين أو حتى الإسرائيليين. أمسك العرب هذه المرّة بمصيرهم وقرّروا صعود قطار الحداثة من دون أعذارٍ أو تأثيمٍ لبقية العالم. وحدهم معنيون بهذه الكرامة المستعادة. سوف يرتجلون، وربّما سيرتكبون أخطاءً، لكنّهم يعلمون جيّداً أنّهم سوف لن يعيشوا مرّة أخرى كأنذالٍ مسحوقين تحت سلطة دكتاتورٍ، مستنيراً كان أو وضيعاً، مضحكاً كان أو متوحّشاً.

وإذا كان من الممكن اليوم أن توصف حركات التمرّد هذه على أنّها "ثورات"، فلأنّها أوّلاً وقبل كلّ شيء منصبّة على مطالب ذات طابعٍ أخلاقيّ ومعنوي.

في رأس حسني مبارك

في هذا اليوم، العاشر من فبراير / شباط 2011، حسني مبارك منزعج: ليس لديه الوقت لصبغ شعره. لم يعد يمارس الرياضة للحفاظ على لياقته. إنّه منزعجٌ جداً لأنّ شعبه يصرّ على أن يراه يغادر السلطة بل ومصر. ولكنّه يتشبّث بالسلطة غير راغبٍ بالتخلّي عن أيّ شيء. كلّ شيء ينهار من حوله. وكأنّ رمالاً متحركة تسحبه. يمدّ يده فلا أحد يمسك بها. أشعثت الريح شعره. فكّر فجأةً في ذلك الصباح من شهر أكتوبر/ تشرين الأول 1981، حينما أطلق إسلاميون النار على المنصّة خلال استعراضٍ عسكري. لامسته رصاصة؛ فمزّقت السترة الزرقاء للجنرال من دون أن تجرحه. خرّ أنور السادات على الأرض، صريعاً. فساد فجأة الهلع والفوضى. استذكر تلك الساعات حيث جعل منه اغتيال قائده الرئيس الجديد للجمهورية المصرية. مرّ ثلاثون عاماً وها هو يقف لا أمام فرقة خاصّة تطلق النار على الحشد وإنّما أمام شعبٍ أعزلَ مسالمٍ لم

يعد يريده رئيساً له. لم يعد يريده. لم يعد يطيقه، وهذا كلّ ما في الأمر. نظر مبارك إلى نفسه في المرآة، ورغب في البكاء. ولكنّه ليس من النوع الذي ينتحب لأنّ ذلك يضعف موقفه. فقد بضعة كيلوغرامات من وزنه، وشحب وجهه، وفقد شهيّته. فكّرت زوجته سوزان مع ولديهما في الذهاب إلى لندن والاستسلام للنسيان. أمّا هو فلا يستطيع الخروج من قصره. فهو يعلم لو أنّه خرج من البلاد، سيعاقبه الشعب عقاباً عسيراً. فقد ارتكب الكثير من المظالم والكثير من الجرائم لئلا يُعاقَب. ومثل العديد من الزعماء العرب، خلط بين البلاد وبيته. لقد اعتقد بأنّ مصر، كدولة وكأمّة، هي ملكية خاصّة له، يمكنه التصرّف بها كما يشاء. عرف كيف يكدّس الكثير من المال، الكثير من المال بحيث كان يلزمه حيوات عديدة ليستمتع به كلّه. لقد توجّه إلى الله وتضرّع إليه لكي يمنحه العمر المديد والصحة والشباب والسلطة المطلقة. استغرق بضع سنوات لكي يوطّد النظام الذي أتاح له الإمساك بالسلطة لكلّ هذا الزمن الطويل؛ فقد أسّس حزباً (الحزب الوطني الديمقراطي)؛ وأنشأ جهازاً أمنياً حاضراً في كلّ مكان ومطلق الولاء لنظامه؛ كما أنشأ بنية للفساد أثرته وأفقرت البلاد. استُنسِخت شبكة الاستخبارات من نظيراتها في البلدان الشيوعية السابقة. كان كلّ هذا موجوداً في ما مضى؛ كلّ ما فعله هو تكييفها مع حاجاته وشهيّته. لقد شاهد عبدالناصر والسادات يفعلان ذلك، فتساءل: "لم

لا آخذ حريّتي في التصرّف؟ " ، وان لم يكن عبدالناصر زعيم دولة يعمل بالتجارة. لقد أعلن مبارك حالة الطوارئ وأسّس برلماناً على مقاسه ووضع رجاله في المواقع الإستراتيجية في وسائل الإعلام، ولعب ورقة مواجهة الخطر الإسلامي لتبرير القمع والاعتقالات والتعذيب. كان صديقاً وفياً للأمريكيين والإسرائيليين. واستضاف على الدوام المسؤولين السياسيين الغربيين في زيارات خاصّة إلى مصر. فلا زلنا نتذكّر عطلة نهاية السنة لفرانسوا ميتران في الأقصر، وغيره الكثر من الزعماء الأوروبيين. وحافظ باستمرار على علاقات طيّبة مع معظم أمراء الخليج.

ولكن، الآن، تمنعه الجماهير البائسة من تناول فطوره في حديقة قصره، ولم يعد يرغب في صبغ شعره. لقد أخبره أحدهم بأنّ في ذلك شيئًا من التخنّث. لم يستسغ المزحة.

في بداية حكمه، كانت نكاتٌ وطرفٌ تُشاع عن مبارك. كان كلّ يوم هناك نكتة جديدة. وكان ذلك يغضبه، فقرّر إطلاق أجهزة استخباراته بحثاً عن الشخص القذر الذي يسخر منه. وسرعان ما اكتُشِفَ رجلٌ مسكين، رجلٌ مسنّ يجلس إلى طاولة في مقهى شعبي صغير في خان الخليلي. اعتُقِلَ واقتيد ليمثُلَ أمام الرئيس. حينما رآه هذا الأخير، لم يفهم كيف نجح هذا الرجل المسنّ الأدرد البائس بمفرده أن يسيء إلى صورته كرئيسٍ عظيم. ولكونه رجلاً مسنّاً لا يمكن تعذيبه، قرّر مبارك أن يوبّخه، قائلاً :

- كيف تروي أشياء بهذه الفظاعة عنّي، أنا الذي أنقذتُ هذه البلاد من البؤس، أنا الذي جلبتُ الحرية والازدهار والديمقراطية لهذا الشعب الجاحد! كفّ إذاً عن أكاذيبك! واعلم أنني، مبارك، من بين كلّ المصريين، الشخص الذي يعمل أكثر لخير البلاد. أنا لا أنام، لا أفكّر سوى بطريقة تحسين حياة مواطنيّ أكثر فأكثر...

قاطعه العجوز وقال له:

- أوه، يا سيّدي الرئيس، أقسم لك أنني لم أروِ قط هذه النكتة...

ثمّة عنكبوتان في رأس مبارك، أحدهما أبيض والآخر رمادي. ليسا على توافقٍ مع الرئيس. يتخاصمان ويسبّبان له صداعاً لا يُحتَمَل. لا يفهم منْ عساه يكون السبب في ذلك. إنّه تعسٌ للغاية.

يشعر بأنّه قد غُدِر به ونُبِذَ وجرى التخلّي عنه ولا يستطيع أن يفهم ما هو ذنبه ولماذا يطالب الشعب بهذا القدر من الإصرار على رحيله؟ فهو مقتنعٌ بأنّه طيلة حياته عمل من أجل الشعب المصري ودافع عن البلاد وحدودها على الصعيد الدولي، وأنّه كان جندياً ناجحاً وشجاعاً ومقداماً ومواطناً نموذجياً. كلّ ذلك أسقطه على رأسه ولم يعد يدري أين هو ولا إلى أين وصل. في البداية، اعتقد بأنّ الجماهير تلومه على علاقاته الوثيقة مع إسرائيل. ولكن كلا. كان الناس يهتفون

بشعارات لا تدين لا الإمبريالية الأمريكية ولا الاستعمار الإسرائيلي ولا الغرب عموماً. كانت الشعارات بسيطة: الحرية، الكرامة، إنهاء الإذلال والإخفاء القسري والعسف الأمني. ومثل التونسيين، تبنّى المتظاهرون المصريون الكلمة الشهيرة "ارحل!". ثورّة اندلعت بمفردة فرنسية "Dégage !"، في حين كانت فرنسا وسياسيوّها عاجزين عن السيطرة على الموقف.

يعتبر مبارك نفسه ضحيّة، ضحيّة التهوّر والفوضى والبلبلة. واكتشف أنّ لا أحد يهبّ لنجدته. وبدا الانعزال والصمت الكبيران والعزلة المطلقة في الأفق. هذه هي الاحتمالات الوحيدة والأخيرة أمامه. إذ لم تبتّ المحكمة الجنائية الدولية في مصيره.

إنّه كرجلٍ هجرته المرأة التي اعتقد بأنّه قد أحبّها طيلة حياته واكتشف أنّ الأمر برمّته كان كذباً وخداعاً. طُرِحَت حياته الخاصّة في الساحة العامّة، وندِّد بقسوته ومرّر أمام ناظريه آلاف المصريين الذين جرى تعذيبهم حتى الموت أو تغييبهم. تشابكت قوائم العنكبوتين. تألّم بفظاعة. اعتاد الألم واندهش له.

يزداد ازدراؤه للشعب شراسةً أكثر من أيّ وقتٍ مضى. يقول لنفسه: "من دوني، لن يجيد المصريون فعل أيّ شيء. أنا أعرفهم، إنّهم كسالى، ضعفاء، خاملون؛ يمكن شراؤهم رخيصاً؛ سوف يضعون البلاد في مآزق اقتصادية وسياسية

واجتماعية. بعد الاحتفال ومظاهر الابتهاج، سيكتشفون من جديد الحقيقة المرّة للحياة اليومية. أنا متأكّدٌ أنّهم سيأتون ويبكون أمام بابي. وحينها سأدعهم يتعفّنون في برازهم. هذا كلّ ما يستحقونه. الفساد هو طبيعة ثانية عندهم، سوف لن يقاوموا.

ولكن هنا... الآن... يجب أن أهتمّ بصداعي... أرى عناكب في كلّ مكان... أرى العتمة من حولي... لم أعد أرى شيئاً... لقد انتهيت... هل هكذا يموت الرجال العظام؟ يا للعار، يا للانحطاط! لا أريد أن أرى أحداً... كانت زوجتي سوزان تعمل لخير هذه البلاد... لقد أعطت من وقتها وجهدها لتكون الحياة الاجتماعية كريمة... ولكننا محاطون بجاحدين، بأبناء العاهرات... هذا هو الأمر... آه، أنا أترنّح، أكاد أسقط أرضاً، لا أحد يأتي لنجدتي... أشاهد الجمال الأخّاذ لهذه البلاد... الآن أفهم أن يأتي الكثير من السياح لزيارتها... هناك أمرٌ مؤكّد، هو أنني سأموت هنا، وليس في مكان آخر... ".

في رأس بن علي

بينما يعاني مبارك صداعاً شديداً، ماذا يفعل بن علي، التونسي، الذي فرّ من بلاده في 14 يناير/ كانون الثاني ؟ لقد فرّ لاجئاً إلى المملكة العربية السعودية. وقد جُمِّد جزءٌ من ثروته في المصارف الأوروبية، وكذلك كلّ ممتلكاته غير المنقولة في فرنسا (ممتلكاته وممتلكات المحيطين به) - سيكون عليه إثبات أنّه حصل عليها بنزاهة، من راتبه مثلاً. كما احتُجزت إحدى طائراته النفّاثة الخاصّة، في مطار لوبورجيه الفرنسي.

كيف يمضي أيامه؟ يشاهد التلفاز. يهمل نفسه. هو الآخر لم يعد يرغب في صبغ شعره. حزينٌ ومكتئب. يعيش في سجنٍ ذهبي. لا يستطيع الخروج، ولا يستطيع الذهاب لشرب فنجانٍ من القهوة في المركز التجاري الأقرب إليه. يتمنّى بن علي لو أن بوسعه البكاء. يتراءى له جسد محمد البوعزيزي الملفوف بالضمادات ويلعنه. لم يعد بن علي يؤمن بالله. لأنّ الله يأخذ

الآن جانب الفقراء، جانب أناسٍ مثل محمد البوعزيزي. "لا بدّ أنّ هذا الغبي قد استسلم للغضب وأضرم النار في ثيابه، لكي أجد نفسي، أنا الذي جلبتُ الرخاء للتونسيين، اليوم في هذا القصر وحيداً، من دون أصدقائي، من دون ألعابي، من دون أيّ شيء! ثمّ إنّ تلفزيونات العالم هذه تغضبني، إنّها تقول ما تشاء. إنّ رأسي مليءٌ بهذه الصور حيث يهتمّ الصحافيون فقط بالفوضى والتسيّب والهلع. ثورة؟ بل إنّها فوضى! سوف يحطّمون كلّ شيء في هذا البلد الجميل؛ أنا نجحت، على الأقلّ، في جلب الملايين من السياح، خلقتُ طبقة وسطى، تخلّصت من الإسلاميين، عملت لطمأنة الغربيين، والآن يدير الجميع ظهره لي. الإنسان كائنٌ جاحد. أكره الإنسانية. أكره هذا القصر، هذا التكييف المفرط، علب المحارم هذه بأغلفتها المذهّبة، أكره هذه المشاهد الصفر، البيض، ثمّ إنني لا أحبّ طعامهم. ولكن هنا، لا أبالي، لم أعد جائعاً، ابن العاهرة البوعزيزي هذا بدّد حياتي هباءً منثوراً! أرادت هذه البلاد الفوضى، فنالتها؛ فلتسرّ بها، وتهنأ بها. هذا شعبٌ من الجاحدين والجبناء؛ حينما كانوا يأتون إليّ طلباً لمنصبٍ أو توسّطٍ، كانوا يركعون أمامي؛ واليوم يتبجّحون! يا للرجال المساكين! يا للبائسين! يفعلون هذا معي أنا الذي ضحّيتُ من أجلهم! لقد استغرقوا وقتاً قبل أن يستيقظوا. شعبٌ من الحمير والرجال المخصيين. إذا كان الله موجوداً، إذا كان يوم الحساب موجوداً، ستكون المواجهة مدهشة.

يتصوّر الناس أنّ رئيس الدولة يكون من الحديد، من الفولاذ غير القابل للصدأ. لديّ قلبٌ ومشاعر. أحبّ الحدائق وباقات الورود؛ أحبّ حلاوة الحياة وغياب الشمس على شاطئ المرسى.

لقد بكيت انفعالاً عند ولادة أطفالي. نعم، أنا الرئيس، حدث لي أن بكيت. اليوم، لم تعد لديّ دموع. يعتمل في صدري الحنق والحقد. لقد أسأت التصرّف، وأُسيء نُصحي. كان عليّ أن أقاوم كما يفعل القذافي الآن. إنّه مجنون ولكنّه لا يلقِي أسلحته، لا يستسلم.

استمرّ القذافي أكثر منّي بعشر سنوات. واغتنى أكثر منّي ومن مبارك مجتمعين. يتحدّى العالم كلّه. جنونه يقوده نحو النصر. لا أهمية لقتل مئات الليبيين، ما يهمّ القذافي هو أن ينجو بحياته وأن لا يمثل أمام محكمة مثل صدام حسين. لن أنسى ما حييت صور صدّام في ذلك اليوم الذي كشفوه في مخبأه، الذي كان عبارة عن حفرة. كان كمن أوقِظ في منتصف الليل، تنبش أيادٍ في شعره وكأنّها تفتّش عن القمل، وتتفحّص أخرى أسنانه... يا لها من قمّة الإهانة!

أمّا أنا، فلا أتصوّر قط أن أضطرّ لمغادرة البلاد واستجداء ملاذ. لقد نجوت على الأقلّ من نبشٍ مهينٍ أمام كاميرات "سي أن أن" و "الجزيرة". إذا سقطنا فهذا بسبب العمل التحريضي والدعائي لمجموعة من الإخوان المسلمين

المرتبطين بقناة الجزيرة منذ البداية. إنّه لخبيثٌ أمير قطر، أو على الأصحّ زوجته الشيخة موزة. إنّها هي صاحبة فكرة هذه القناة التلفزيونية. هي مَنْ قتلتنا. طبعاً، ما من كلمة واحدة حول الوضع في قطر. في حين يتمّ التدقيق في أصغر حدثٍ في البلدان العربية الأخرى، وتتمّ إثارته مراراً وتكراراً. تأتي المؤامرة من هناك. لكثرة ما ردّدت أنّ فلاناً ديكتاتوراً، انتهى الناس إلى تصديق ذلك. يجب القول إنّ أصهرتي من أبناء الأثرياء الجدد لم يساعدوني. أمّا زوجتي، فقد اندفعت وأرادت أن تستولي على كلّ شيء وتسيطر على كلّ شيء. لا يستطيع أيّ رجلٍ في تونس أن يقاوم زوجته حينما تشاء الإمساك بالسلطة. أنا في وضعٍ يمكنني الحديث عن ذلك. عبثاً نبّهتها: انتبهي، أخبري ابن أخيكِ ألا يبالغ، سيسوء الأمر ذات يوم...، كلا، كانت تعتقد، مثلي، أنّ هذه الحياة التي يتاح فيها لنا كلّ شيء ستكون أبدية. كان كلّ شيء يسير على ما يُرام. كانت البلاد هادئة. وكانت مفوضيات الشرطة ورجالها يعملون بكتمان تامّ. لم تكن الصحافة الأجنبية تدخل البلاد. وكان السياح يفتتنون بجربة وتوزر. ولكن ها هي زمرة من السوقيين المحرّضين من قبل العاطلين عن العمل ومن التافهين والخاملين تأتي وتفسد كلّ هذا. لقد قال القدماء: (يجب أن يُسحَق العربي وإلا سحقك). لم أكن متنبهاً بما فيه الكفاية لرسائل القدماء...".

انتفاضة أم ثورة؟

هذا الربيع القادم في عزّ الشتاء لا مثيل له في التاريخ الحديث للعالم، إلا إلى حدٍّ ما ثورة القرنفل في البرتغال (أبريل / نيسان 1974). حتى لحظة اندلاع هذه الحركات، كانت الشعوب العربية معتادة على أن تقبل بمصيرها وتخضع له مستسلمة. شهدت المنطقة، من حين لآخر، بعض حركات التمرّد، والتي قمعت في كلّ مرّة بقسوة، وقضي على كلّ المعارضين. يشترك المغرب والمشرق في هذا الأمر: ليس هناك اعترافٌ بالفرد. لقد فُعِل كلّ شي لمنع ظهور الفرد ككيانٍ فريد ومتميّز. إنّ الثورة الفرنسية هي التي سمحت للمواطنين الفرنسيين أن يصبحوا أفراداً لهم حقوقٌ وواجبات. في العالم العربي، ما يُعتَرَف به هو القبيلة والعشيرة والعائلة، لا الشخص كفرد. والحال أنّ الفرد هو صوتٌ، هو شخصٌ، لا يمكن للجماعة أن تخضعه أو تسيطر عليه. شخصٌ له كلمته التي ينبغي قولها، ويقولها من خلال المشاركة في انتخاباتٍ حرّة

ونزيهة. هذا هو أساس الديمقراطية؛ إنّها ثقافة تستند إلى عقدٍ اجتماعي؛ يتم انتخاب شخصٍ ليمثّل الشعب خلال فترة محدّدة، ومن ثمّ تُجدّد له مهماته أو يُعزَل عنها.

في العالم العربي، يتصرّف رؤساء الجمهورية كملوك ذوي سلطة مطلقة ويتمسّكون بالسلطة باستخدام العنف وبالفساد والكذب والابتزاز. ورث بشار الأسد السلطة عن والده حافظ الأسد. ويستعدّ سيف الإسلام ليخلف والده القذافي بعد موته. وسعى مبارك كثيراً إلى فرض ابنه في خلافته، ولكنّ مع ثورة يناير / كانون الثاني سقطت كلّ حساباته في الماء. المبدأ هو نفسه دائماً: ما إن يصلوا إلى السلطة، يعتقدون بأنّهم سيخلدون فيها أبداً، شاء الشعب أم أبى. ولعدم إثارة حفيظة الغربيين، يشيدون نوعاً من "الديمقراطية الشكلية"، مجرّد مساحيق تجميل، إنه نوعٌ من ذرّ الرماد في عيون المراقبين. في الحقيقة، تكون كلّ الأمور بين أيديهم ولا يتسامحون مع أيّ اعتراضٍ أو معارضة. تكون البلاد محميتهم الخاصّة، يتصرّفون بمواردها ويمارسون الأعمال التجارية ويغتنون وطبعاً يودعون ثرواتهم دائماً في المصارف السويسرية أو الأمريكية أو الأوروبية.

ما حدث في تونس ومصر هو احتجاجٌ ذو طبيعة معنوية وأخلاقية في آنٍ واحد. هو رفضٌ مطلق وصريح للاستبداد وللفساد، لسرقة ثروات البلاد، رفضٌ للمحاباة والمحسوبية،

رفضٌ للإذلال واللاشرعية التي تشكّل أساس الوصول إلى السلطة من قبل هؤلاء الزعماء الذين يسلكون سلوك المافيا. احتجاجٌ في سبيل إقامة القليل من الطُهر الأخلاقي في مجتمعٍ جرى استغلاله وإذلاله كثيراً. ولذلك، هذه ليست ثورة إيديولوجية. وكما كتبتُ آنفاً، ليس لها قائد أو زعيم، أو حزب يتزعّم التمرّد. إنّهم الملايين من الناس البسطاء الذين خرجوا إلى الشوارع لأنّه طفح الكيل بهم! إنّها ثورة من طراز جديد: عفوية ومرتجلة. صفحة من التاريخ تُكتَب يوماً بيوم، بلا تخطيط ولا تصميم مسبقين، بلا سمسرة ولا تزوير. إلى حدّ ما كما يكتب الشعراء بإملاءٍ من الحياة ويتمرّدون في سبيل أيامٍ أفضل. يتحمّل المسؤولون الأوروبيون مسؤولية كبيرة في الحفاظ على هذه النظم غير الشعبية والتسلطية. دفعتهم أسبابهم على الدوام إلى السكوت وإطلاق يد هؤلاء الحكّام. كان السبب الأوّل هو اعتقادهم بأنّ مبارك، كما بن علي، كانا يمنعان قيام جمهورية إسلامية على النمط الإيراني. والسبب الثاني هو أنّ رؤية العقود والأعمال الدسمة أدّت إلى إزاحة احترام حقوق الإنسان جانباً...

في الحالتين، كان الأوروبيون يخدعون أنفسهم. فالثورة الإيرانية كانت ممكنة لأنّ المذهب الشيعي مبنيٌّ وفق تراتبية راسخة (الإمام، الملا، آية الله، إلى آخره...). بالنسبة للشيعة، إمّا أن يكون الإسلام سياسيّاً أو لا يكون (هذا ما صرّح به

الخميني لدى وصوله إلى طهران). إذاً، لقد جرى التحضير للثورة الإيرانية لوقتٍ طويل، كردّ فعل، إضافة إلى أسبابٍ أخرى، على القمع الوحشي الذي كان يمارسه جهاز "السافاك"، جهاز الشرطة السياسية للشاه. ثورة منظّمة ولها قيادة، لها ترتيباتها ومخططاتها. في حين أنّ الإسلام السنّي لا يفهم ممارسة الدين على أنّها تراتبية. إنّه يتبع القرآن الذي يقول بأنّ لا كهنوت في الإسلام. لا كاهن ولا حاخام ولا آية الله. على الصعيد السياسي، اجتاحت تيارات عديدة البلدان العربية، التيار الإسلامي واحدٌ من بينها. في مصر، على سبيل المثال، وحده انقلابٌ عسكري قد يتيح للإسلاميين الوصول إلى السلطة. ولكن هذا يتطلّب أن يكون الجيش برمّته إسلامياً، وهذا محال.

أمّا في ما يتعلّق بالنقطة الثانية، يغمض الغربيون أعينهم في كلّ مكانٍ يمارسون فيه أعمالاً تجارية، سواء كان ذلك في الصين أو في ليبيا أو في الجزائر. ولكن منذ أن أعلن باراك أوباما احترامه لحقوق الإنسان أمام ضيفه الصيني في يناير/ كانون الثاني 2011 ، لم يعد من السهل تقديم الأعمال التجارية على حقوق الإنسان.

في خضم الأزمة التونسية، طالعتنا وسائل الإعلام الفرنسية بأنّ العديد من الوزراء الفرنسيين كانوا قد قبلوا دعوات إلى تونس، ومصر وأقاموا علاقة ودّ ممتازة مع حكّامٍ

مستبدين، يعرفون عنهم كلّ شيء، بما في ذلك الطريقة التي يعذّبون بها المعارضين ويخفونهم. يا له من نفاق، يا له من رياء!

ستكون لهذه الثورات على الأقلّ فائدة واحدة: لن يعود أيّ شيء كما كان، لا داخل هذه البلدان، ولا خارجها. سوف تضطرّ حكومات البلدان العربية الأخرى التي لديها مقوّمات التحرّك والتمرّد لإصلاح نظامها ولأن تكون أكثر تيقّظاً في ما يتعلّق باحترام حقوق الفرد. ولن يعود المواطن رعيّة خاضعاً لاستبداد السلطة الجائرة والمهينة، سوف يصبح فرداً له اسم، وصوت، ويحظى بكلّ حقوقه.

أمّا في ما يتعلّق بالبلدان الأوروبية، فعليها أن تنتظر إلى أن تجد شبيبتها المهملة، المنكَرة، المخذولة في الضواحي، والتي تعاني بنسبة 45 في المئة من البطالة، أن تجد في رياح الحرية العربية دعوة إلى الانتفاض، وهذه المرّة بما يكفي من الإرادة على تحقيق النجاح. دائماً ينتهي الاحتقار والعنصرية بالعقم.

تونس

ديسمبر/كانون الأول 2010- يناير/كانون الثاني 2011

النشيد الوطني التونسي ينتهي بهذين البيتين الشعريين للشاعر أبو القاسم الشابي:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة   فلا بدّ أن يستجيب القدر
ولا بدّ لليل أن ينجلي   ولا بدّ للقيد أن ينكسر.

كان المتظاهرون ينشدون هذا المقطع كما كان أجدادهم ينشدونه إبّان الكفاح في سبيل الاستقلال (1956).

كان نظام بن علي يُقارن باحتلالٍ استعماري، أيّ لا شرعيّ ومتوحّش. لقد أمضى عشرين عاماً في إرساء الشبكات والتنظيمات الضرورية لإخضاع البلد لإرادته. تحت ذريعة حماية البلاد من الخطر الإسلامي، أجاز لنفسه كلّ شيء، وهذا تحت بصر ورضا الدول الأوروبية.

وخلال عهود الثورة والمقاومة، غالباً ما تهبّ نسمات الإبداع على الشعراء. بعد تونس، التي شرعت في إرساء طريقة

جديدة للعيش والعمل، قلبت مصر كلّ المعطيات التي كانت تجعل من العالم العربي كتلة لعينة، منذورة للطغاة والرجعية. قضى بعض الكتاب حياتهم في رفض هذه اللعنة . الشعراء دائماً أصحاب رؤية، لقد استشعروا ما ينبغي أن يتغيّر من كلّ بد. كان على الطغاة أن يقرأوا الشعراء، الذين يكرهونهم عموماً. لأنّه لا بدّ أن يأتي اليوم الذي تتحوّل فيه المقاومة الشعبية نفسها إلى نوعٍ من الشعر- شاهدنا ذلك في الأشهر الأخيرة في شوارع تونس ومن ثمّ مصر.

نتحدّث اليوم عن سقوط جدار برلين هائل. في الحقيقة، الآن، تنهار وتتشظّى جدرانٌ ومحظورات وقوالب عديدة . الشعراء دائماً محقّون أكثر من غيرهم: الروسي فلاديمير ماياكوفسكي، التركي ناظم حكمت، الفلسطيني محمود درويش، العراقي بدر شاكر السيّاب، المصري أحمد شوقي، كلٌّ بأسلوبه، رفع صوته في القرن الماضي ليفصح عن الحاجة الملحّة والحيويّة إلى الحرية والعدالة. ومع ذلك، لم يأخذ أيّ نظام مستبدّ على محمل الجدّ ما يقوله شاعر أو فنّان عن المجتمع.

كان العالم أجمع يعرف ما كان يجري في مفوضيات شرطة البلدان العربية: غالباً ما تحدّثت الصحافة العالمية عن القمع الذي كان ضحاياه أبناء الشعب والمهمّشين والمنسيين، الذين تعرّضوا للمظالم ولم يتمكّنوا من التعبير عن رأيهم أو

الدفاع عن أنفسهم. كتب العديد من الصحافيين أو النشطاء المنفيين كتباً تدين هذه الدكتاتوريات، التي اعتُبِرَت "معتدلة" من قبل بعض الزعماء الغربيين الخيّرين للغاية.

لكنّ الأصوات المبعثرة لا تُسقِطُ أبداً الدكتاتوريات، فدعت الحاجة إلى أن تتتالى حوادث كثيرة واشتباكاتٌ مع الشرطة وانتهاكات صارخة وممارسات لا تُحتَمل لكي تندلع الشرارة أخيراً.

هكذا نعيش في البلدان النامية.

هكذا نموت في البلدان التي يكون فيها الاستقرار والأمن مضمونين بنظر الغرب، ورغماً عن المواطن وحرياته وحقوقه.

ساند الجميع بن علي في استيلائه على السلطة في نهاية الثمانينات. بل وجرى الحديث عن "انقلابٍ طبّي". في الصباح الباكر للسابع من نوفمبر/تشرين الثاني 1987، دخل الرجل الذي عيّنه الحبيب بورقيبة وزيراً للداخلية، ثمّ رئيساً للوزراء، القصر وأزاح رجلاً مسنّاً مريضاً، أخرجه من سريره وأخبره بأنّه لم يعد رئيساً. كان قد جمع، عشية ذلك النهار، سبعة أطباء في وزارة الداخلية وأرغمهم على التوقيع على شهادة تثبت "عجز بورقيبة عن ممارسة الحكم". ويقال إنّ أحد الأطباء، والذي رفض التوقيع لأنّه لم يلتقِ بورقيبة منذ سنتين، سمع بن علي يقول: "وقّع، لا خيار لك". قبل ذلك بمدّة، كان بن علي قد زرع أعوانه في الوزارات. عزل رجلاً عظيماً

وحلّ محلّه بلا خجل ولا حياء. بالتأكيد، كان يمكن لبورقيبة أن يرحل من تلقائه، وأن يقرّر ترك السلطة لأنّ حالته الصحية ما عادت تسمح له بالحكم. ولكن حينما يكون المرء في السلطة، يتصرّف وكأنّ حمّة قد أعدَتْه. وحده ليوبولد سيدار سينغور، رئيس السنغال، تخلّى طواعية عن صلاحياته لكي ينذر نفسه للكتابة والشعر والمطالعة. ولكن ليس كلّ زعماء الدول شعراء!

لنتذكّر هنا الخطوات الجريئة لبورقيبة وحداثته. فأوّلاً هو الذي تفاوض مع فرنسا حول استقلال بلاده. وسرعان ما قاد تونس في مسارٍ من الحداثة النادرة آنذاك في العالم العربي. لقد غيّر وضع الأسرة - كانت تونس أوّل بلد ولزمنٍ طويل البلد العربي والإسلامي الوحيد الذي اعترف بحقوق المرأة: حظر تعدّد الزوجات وإباحة الطلاق، شرّع الإجهاض (قبل فرنسا بكثير!). كانت هذه خطوات ثوروية. كان رجل الدولة الوحيد الذي أشاد بالعلمانية جهاراً: في أحد أيام شهر رمضان (في مارس/آذار 1964)، ظهر على التلفاز وشرب، على الهواء مباشرة، كوباً من عصير البرتقال أمام المشاهدين المندهشين. وقد برّر تصرّفه بدواعٍ اقتصادية. لم يستطع التساهل مع وقوع الاقتصاد في حالة من الركود طيلة شهرٍ كامل لأنّ العاملين يصومون ولا يحظون لا بالقوة ولا بالطاقة لإجادة عملهم. كان التونسيون لعقودٍ من الزمن أحراراً في أن يصوموا أو لا

يصوموا. المقاهي والمطاعم مفتوحة الأبواب. الناس يأكلون بكلّ هدوء وطمأنينة. والذين يصومون في شهر رمضان لاعتقادهم الديني، لا أحد يعاتبهم أو يزعجهم.

في 3 مارس / آذار 1965، ألقى بورقيبة في أريحا الفلسطينية خطاباً رؤيوياً ولكن لم يستطع أحدٌ القبول به آنذاك. نصح العرب بـ "تطبيع علاقاتهم مع إسرائيل"، قائلاً: "إنّ سياسة كلّ شيء أو لا شيء لم تقد الفلسطينيين إلا إلى الهزيمة". خاصم كل الزعماء العرب وخاصة المصري عبد الناصر الذي كان ينتقد نزعته القومية المتعصبة. نزلت الجماهير العربية إلى الشوارع للتنديد باستسلام "الخائن للقضية الفلسطينية المقدّسة". لم يثنِ ذلك بورقيبة عن المطالبة في الأمم المتحدة بـ "إقامة اتّحادٍ بين الدول العربية وإسرائيل".

بعد مرور عامين، في الخامس من يونيو/ حزيران 1967، شنّت إسرائيل حرباً خاطفة على مصر وسوريا والأردن والعراق. وقد سمّيت تلك الهزيمة بالنكسة في اللغة العربية. اليوم، يحلم الفلسطينيون باستعادة أراضيهم لما قبل يونيو/ حزيران 1967... ولكن لن تعيد إليهم إسرائيل قط شبراً واحداً منها.

كان بورقيبة رجلاً علمانياً، مثقّفاً، صاحب رؤية. ولكن شخصيته التسلّطية أفسدت مسيرته.

كان، رغم إصلاحاته، حاكماً جائراً، خاصّة حيال الذين عارضوا سياسته بطريقة ديمقراطية. ولكن هل كان ذلك سبباً كافياً لكي يأتي بن علي، العسكري المتزوّج من مزيّنة، ويزيحه مثل هيكلٍ عظميٍّ شائخ ينتظر الموت؟

لم يقلب بن علي كلّ الأمور في بداية استيلائه على السلطة. واصل إصلاحات بورقيبة، خاصة في مجال التربية والتعليم. استدعى محمد الشرفي، المدافع عن حقوق الإنسان، وسلّمه وزارة التربية الوطنية وكلّفه بمهمّة تنقية المناهج المدرسية من الإيديولوجيا الإسلامية والمتعصبة. وقد أنجز محمد الشرفي مع فريقٍ مكوّنٍ من نحو خمسين أستاذاً عملاً رائعاً. أعاد كتابة كلّ المناهج المدرسية بروحية التنوير والانفتاح النقدي. وقد شجّع بن علي عمله. ولكن حالما أنهى مهمته، استقال محمد الشرفي واستعاد حريته.

سرعان ما أصبح الكفاح ضدّ الأصوليين المتشددين أحد هواجس بن علي وتحوّل إلى مطاردة هستيرية، مصحوبة باعتقالات تعسفية وتعذيبٍ في مراكز الشرطة وحالات سجنٍ في أسوأ ظروفٍ لا يمكن تخيّلها. متذرعاً بالخطر الإسلامي، شرع بن علي يمارس السلطة بطريقة دكتاتورية متزايدة، ناشراً الرعب في البلاد، مانعاً الصحافة الأجنبية، مطارداً المعارضين، حتى الذين لم تكن لهم أيّ صلة بالأصولية. ولأنّ النمو الاقتصادي كان مساعداً ولأنّ الاستقرار قد حلّ بفعل القمع، سرعان ما بدا بن علي في أنظار الغربيين مثل "سورٍ ضدّ الأصولية" مطمئنٍ للغاية. وهكذا استطاع بن علي، طيلة

ثلاثة عقود، ومن دون أن يزعجه أحد، أن يخضع بلاده لدكتاتورية لا يحظى فيها المواطن التونسي بأيّ حقٍّ من حقوقه. غدت تونس ملكيته الخاصّة. واستغلّت عائلته، بالمعنى الواسع والضيّق للكلمة، ذلك بإفراطٍ ومن دون حياء.

أطلقت باريس سراح أحد أشقائه، كان قد اعتُقِلَ في فرنسا في قضية إتجار بالمخدرات، واستطاع الوصول بهدوء إلى القصور المذهّبة لتونس. في الوقت ذاته، كان يُعتقل مناضلون، ويتسكّع شبابٌ مجازون في الشوارع من دون عمل، حينما لا ينضمون إلى صفوف المرشّحين للهجرة السرية.

لقد منحت الدوائر الغربية على الدوام درجات رفيعة لتونس ورئيسها، الذي كان يعيد انتخاب نفسه كلّ خمس سنوات بنسبٍ تناهز 90 في المئة. كان السيّد بن علي يلقى، خلال زياراته الرسمية إلى أوروبا، التصفيق والترحيب ويُقدّم كنموذج على "التطوّر السليم للديمقراطية" في بلاده. اعتقدنا بأننا نحلم. حينما فرّ مثل لصّ (لأنّه لصّ)، عرضت التلفزيونات خطابات السادة جاك شيراك ونيكولا ساركوزي ودومينيك ستروس-كان وسيلفيو برلوسكوني، إلخ. كان مذهلاً سماع ما كان يصرّح به هؤلاء الناس أمام بن علي، وما كانوا يهمسون به، في المقابل، حينما فرّ السوقي. هذه هي "الواقعية السياسية".

كانت تونس، بفضل صورته كتلميذٍ نجيب، قد غدت تدريجياً مقصداً سياحياً أثيراً. فاستفاد من ذلك الاقتصاد والعمل. لم يكن الزائر يرى شيئاً من المظاهر الفاضحة للنظام،

إلاّ إذا كان الزائر صحافياً مخضرماً أو كاتباً دقيق الملاحظة.

أنا استطعتُ أن أجرّب ذلك في العام 2005، حينما دُعيتُ من قبل المركز الثقافي الفرنسي في تونس لأتحدّث إلى طلابٍ وتلاميذ في المدارس الثانوية. سرعان ما لاحظتُ أنني متابَعٌ باستمرار من قبل رجال أمنٍ بالزيّ المدني. طرح عليّ الطلاب أسئلة محض أدبية، ولكن حالما انتهى المؤتمر جاؤوا إليّ وتحدّثوا معي همساً. كرهتُ تلك الرحلة وذلك الجوّ الساحق. أمّا بالنسبة للصحافيين الذين تجرّأوا على إدانة هذا النظام البوليسي الفائق، فقد أودعوا بكلّ بساطة السجن. أشهرهم يُدعى توفيق بن بريك، والذي أمضى بين العامين 2009 و2010 ستّة أشهر من الاعتقال في قضية ملفّقة بالكامل. لم يتحمّل النظام حريّته في التعبير ولا الانتقادات التي وجّهها ضدّه، خاصّة حول التعذيب وحالات إخفاء المعارضين.

كشف الاعتداء على كنيس جربة (11 ابريل/نيسان 2002، وقد أوقع 21 قتيلاً) للمراقبين الأكثر نباهةً بأنّه إذا كان بن علي قد أجاد إسكات الإسلاميين في بلاده، فإنّه لم ينجح في منع القاعدة من ارتكاب أعمال دموية على أراضيه. كان الانتحاري ينحدر من أسرة مهاجرة إلى فرنسا وكان على صلاتٍ مع ألماني معتنقٍ للإسلام...

الشرارة

لم أكن قد سمعت قط بالمدينة الصغيرة سيدي بوزيد. ومع ذلك بدأ كلّ شيءٍ منها. حادثٌ عادي، دارج، ولكنّه كافٍ ليطلق الشرارة التي لا يمكن إخمادها.

كان هناك ذات مرّة شابٌ عمره 28 عاماً، مجازٌ ولكنّه بلا عمل، يعيش مع أمّه وأخوته وأخواته. وليكسب القليل من المال، تزوّد ببسطة، وهي تشبه عربة توضع عليها الفاكهة والخضراوات الموسمية لبيعها. بائع متجوّل. ونحن نرى هؤلاء الباعة في كلّ مكانٍ تقريباً في مدن الدول المغاربية. غالباً ما تقف السيارات بجانبها لتشتري في اللحظة الأخيرة الفاكهة الضرورية لتحلية ما بعد الغداء. لا يتوفّر هؤلاء الباعة على الموارد المالية الكافية لفتح محلٍ والاستقرار فيه. إنّهم فقراء ويعيشون يوماً بيوم. أحياناً تعيق بسطتهم حركة المرور، ولكن يتدبّر الجميع أمورهم. وإذا ما تمّ "شراء" رضا الشرطي

الموجود في المكان، يمكن للبائع أن ينعم بالهدوء ويبيع بضاعته من دون قلق. أحياناً يبالغ هذا الشرطي نفسه في إظهار حماسته ليظهر لرئيسه بأنّه صارم ويُرغِم البائع على الانصراف والوقوف في مكانٍ آخر. والحال أنّ هناك أماكن أكثر إستراتيجية من سواها - الأماكن التي تكون فيها الحركة أكثر تكون مفضّلة طبعاً للتجارة. في هذه الأماكن على البائع أن "يدفع" أجرتها. ولا بدّ له أن يدسّ في جيب الشرطي ورقة نقدية أو ورقتين. فتنشأ بين الشرطي والبائعين علاقة مهيمِنٍ ومهيمَن عليه، مثل المافيا الصغيرة للحيّ في إيطاليا. أتريد أن تعمل؟ إذاً، يجب أن تدفع. إذا ما قاوم التاجر، سيجد بسطته تُقلَب في الحال أو تُصادَر بسبب "عرقلة السير على الطريق العام".

ما يكسبه بائعٌ متجوّل ليس كثيراً. بالكاد ما يُطعم به أسرته الصغيرة. لم نرَ قط بائعاً للفاكهة والخضار يكوّن ثروةً. كان محمد البوعزيزي من هؤلاء الناس الذين يكدّون يومياً ليعيشوا بكرامة. كان يرفض التسوّل والتلوّث المافيوي والسرقة وكلّ ما هو غير مشروع. كان يرى كيف أنّ بن علي وعائلته الكبيرة، عائلته وعائلة زوجته، يستغلّون البلاد بلا حياء. وككلّ المواطنين التونسيين، كان على علم بطيش ومجون أصهرة وأشقاء وأنسباء وأبناء عمومة وأصدقاء بن علي، هذه الزمرة التي لا تتوانى عن تكديس الملايين. كان على جميع الصفقات

التجارية الكبيرة والمشاريع الضخمة والاستثمارات الأجنبية أن تمرّ عبر "قانون بنِ علي- طرابلسي". كان هذا النظام معروفاً ويجري الحديث عنه، ثمّ يُضاف: "نغضّ الطرف، لأنّ تونس تخلّصت من الإسلاميين". كان برجوازيو تونس العاصمة والمرسى وسيدي بوسعيد والحمامات تتباهى بالعيش في بلدٍ "للأمان المطلق"، " لا سطو، لا هجمات في الشارع، الشرطة تجيد فعلاً عملها". كان الناس الذين يتعاونون مع النظام يعيشون في راحة وهناء. كانوا ممتنين لبن علي، هذا العسكري السابق الذي أجاد استثمار ثروات بلاده. كان الساسة الفرنسيون والإيطاليون يذكرون غالباً تونس على أنّها نموذج مثاليّ في العالمين العربي والإسلامي. كان الزعيم الإسلامي راشد الغنوشي قد لجأ إلى لندن. ولم نعد نسمع لا به ولا بحركته، حركة النهضة. لقد عُزِل التيار الإسلامي.

اضطرّ محمد البوعزيزي للانقطاع عن دراسته، عند وفاة والده، العامل الزراعي. وتكفّل بمسؤولية كلّ العائلة، أي سبعة أشخاص. اشترى عربة وقرّر أن يبيع الفاكهة والخضراوات في الشارع. ولكن لم تكن لديه رخصة بذلك. ضايقه رجال شرطة البلدية. رفض الفساد. وعلى كلّ، ليست لديه أموال ليدفعها. لم تدعه الشرطة وشأنه. ما إن يروه، يطاردونه ويهدّدونه بمصادرة عربته وميزانه. في صباح السابع عشر من ديسمبر/كانون الأول 2010، صادف رجال شرطة أشراراً للغاية صادروا عربته بما

تحمل. كانت من بينهم امرأة، صفعته، في حين بصق آخرٌ عليه. إهانة شديدة. حاول أن يستعيد عدّة عمله، شرح بأنّ لديه سبعة أشخاص عليه إطعامهم، وبأنّه لم يقم بأيّ عملٍ مخالف... تضاعفت وحشية وعدوانية رجال الشرطة.

تصاعد الغضب وقرّر محمد التوجّه إلى البلدية؛ فلم يشأ أحد الإصغاء إليه. فذهب إلى المحافظة...

في تلك اللحظة، كان الجميع لا يزال يجهل أن هذا الإذلال سيكون شرارة ثورةٍ لا يمكن تقدير نتائجها...

كان الناس يمضون حياتهم في تجرّع الإهانات، وتبرير مواقفهم والقبول بقدرهم، وكانوا يردّدون في أنفسهم أن الضوء سينبثق ذات يوم وأنّ الحياة ليست سوى تراكم للمصائب. تمسّك الناس بالأمل وصلوا وأكثروا من الدعاء، وزاغ بصرهم نحو أماكن أخرى: جمال الأشجار، تحليق عصفور، زيارة فراشة، ابتسامة على وجه طفل، ثقة مفاجئة بالإنسانية، قالوا لأنفسهم إن هذه المرحلة ستمرّ، هذه ليست سوى لحظة رديئة، الله كبير وسيفتح أبواباً.

ولكن في ذلك اليوم، اصطدم رأس محمّد بجدارٍ من الاسمنت المسلّح. لم يرَ أيّ مخرجٍ لقدره. لم يرَ أيّ نجدة في عيون المارّة. لم يجد يداً ممدودة، ولا كلمة مواساة، ولا عدالة. محمّد هو المواطن الكوني الذي عيل صبره. ربّما كان عليه أن يفكّر آنذاك بشخصية أيوب - النبي أيوب في القرآن

الكريم - وبالصبر الذي تحلّى به ليتحمّل كلّ ما فرضه الله عليه. ولكنّه لم يفكّر بذلك. النبي أيوب بعيد. كلّ شيء بعيد. لم يعد هناك أحدٌ حوله. حتى إنّه لم يرَ لا أمّه ولا شقيقته ليلى التي يحبّها كثيراً.

شعر بنفسه وحيداً، معزولاً. تخلّى الله عنه. كان متأكّداً من هذا الأمر. نظر إلى السماء في تلك اللحظة الباردة من شهر نوفمبر/تشرين الثاني. عزلة مطلقة يفاقمها الشعور القاسي بظلمٍ لا يُحتَمَل. الصفعة ومن ثمّ البصاق. لا يُفعَل هذا حتى بكلبٍ. أُلْغيَت إنسانيته، كما يُزال مسحوقٌ عن وجهه. لم يعد لديه وجه، ولا نظرة، ولا كبرياء. أُهدِرَت كرامته وسُحِقَت تحت نعال شرطة البلدية. قال لنفسه: "كم يكون الفقراء أشراراً حيال فقراء آخرين، أكثر فقراً منهم". لأنّ هؤلاء المأمورين هم بائسون يعيشون بفضل الفساد، يستدعيهم الحاكم ليقدّموا له القهوة أو ليدهنوا له قصره. فيطيعون ويخرّون جاثمين لخدمة السلطة. يُطأطئون رؤوسهم ويخفضون أبصارهم ليسدوا الخدمات لمن يدينون لهم بمناصبهم. هذا معروف. أن يكون المرء مديناً هو شكلٌ من العبودية المعاصرة. فيقومون بأكثر من عملهم. يتّخذون مبادرات، يعتبرون أنفسهم قادة، صغاراً، ولكن قادة في نهاية المطاف. يعطون الأوامر بنفس الغطرسة وبنفس العنف الذي يستخدمه رؤساؤهم. إنّ بائعاً متجولاً هو فقيرٌ نموذجي. يمكن احتقاره عند القبض عليه، يمكن مصادرة

عربته، وإن لم يعجبه ذلك، فليذهب إلى الجحيم. "نعم! فليذهب إلى الجحيم!". يبدو أنّ هذه هي الكلمات التي ربّما نطق بها بن علي حينما أُخبِرَ بأنّ البائع قد أضرم النار في جسده.

عانى محمد البوعزيزي خمسة عشر يوماً بلياليها من الآلام قبل أن (يذهب إلى الجحيم) حرفياً.

مثل كلبٍ، مثل "نكرة"، مثل شبحٍ، مجهول، مثل فقيرٍ. وأن تكون فقيراً في تونس، في مصر، في اليمن، وفي الكثير من البلدان العربية الأخرى، هو أن تكون معرّضاً لأن تنفق مثل كلب، إمّا لأنّ شرطياً من البلدية سيدفعك إلى الانتحار، أو لأنّك، إن مرضتَ، سوف لن تجد ما تُعالَج به وستنفق لانعدام الأدوية والمساعدة. قرّر محمد البوعزيزي الخلاص. ولكن كيف لجأ إلى حرق نفسه بالنار؟ لا ينتمي هذا الفعل مطلقاً لا إلى تراث وثقافة بلاد المغرب، ولا إلى الإسلام الذي يحرّمه. إن من يتحدّى الله في الذهاب الطوعي إلى الموت المحتّم، سيكرّر فعلته إلى الأبد. لا بدّ أن محمد قد رأى صورًا لرهبانٍ بوذيين وهم يحترقون بالنار؛ أو أنّه سمع بذلك. إنّه فعلٌ مشهدي، ذو دلالات مباشرة لا لبس فيها. النار لا تترك شيئاً. إنها تلتهم كلّ شيء. إنّها تؤلم على نحوٍ مريع. أضرم محمد النار في نفسه على الملأ، أمام باب المحافظة، أمام تلك الإدارة التي رفضت الإصغاء إليه وإنصافه. كان يعلم أنّه قد

فقد ملكه نهائياً، وأنّ رجال الشرطة سوف لن يعيدوه إليه، وأنّ رؤساءهم سوف لن يقفوا إلى جانبه ويهبّون لنجدته. كان يعلم أنّ، في هذه البلاد، الفقير مدانٌ فقط لمجرّد أنّه فقير. فكان لا بدّ أن يقود اليأس إلى شيءٍ ما قد يؤثّر على الآخرين، على هؤلاء اللامبالين، الظالمين، الذين لا يسعهم أن يفعلوا سوى مواصلة طريقهم، لأنّ مصير بائعٍ متجوّل لا يهمّ أحداً.

هل يشنق نفسه في بيته؟ لن يفيد ذلك في شيء... هل يمزّق أوردته؟ ولا هذا أيضاً... هل يتجرّع حبوباً منوّمة؟ أيضاً سيكون عليه أن يشتريها، ومن ثمّ سيكون انتحاراً صامتاً، سيقول الناس: المسكين، لقد مات ميتة جميلة... مات وهو يغطّ في نومه! كلا، أراد محمد أن يموت ويجعل من موته عملاً مفيداً للآخرين، مفيداً للفقراء، مفيداً للبلاد. ربّما لم يفكّر بكلّ البلاد ولكن، وهو يصبّ على نفسه البنزين ويشعل عود ثقاب، لا بدّ أنّه حظي بالوقت ليفكّر بوالدته وأخوته وأخواته، وربّما بوالده، ربّما فكّر بأنّ من الأفضل أن ينضمّ إلى والده بدل العيش مهاناً، بلا كرامة، بلا مال، نهباً لنزعات الأقذار الصغار الذين لا يقلّ أذاهم عن أذى الأقذار الكبار.

اشتعلت النار في الحال. ظلّ ساكناً بلا حراك. حينما هرع أناسٌ لإنقاذه، فات الأوان، كانت النار أسرع منهم، كانت النار قد أنجزت عملها. كان محمد لا يزال يتنفّس ولكن في جسدٍ محترق، جسد شمّت روحه رائحة الجنّة، أو ربّما ألسنة

لهب الجحيم. نُقِل إلى مستشفى صفاقس، ثمّ إلى مركز الحروق الكبيرة في بن عروس قرب تونس العاصمة. كان الجسد متشققاً. لم تستطع الروح أن تخرج، يمنعها الرماد، حبيسة جسدٍ لم يعد جسداً، وإنّما مجرّد شاهد على ما يمكن أن تسبّبه الإهانة.

على سريره في المستشفى، كان ملفوفاً بالضمادات؛ فتمنّينا لو أنّها فجأة وبفعل السحر انحلّت عنه وانسلّت أمام أعيننا وأمام عدسات التلفزيونات، وظهر تدريجياً جسدٌ غضّ وجديد يحلّ محلّ القديم، وكأنّه بتحريضٍ من ملاكٍ أو إلهٍ أشفق على هذا الرجل المسكين الذي قدّم حياته فداءً لما يقارب أحد عشر مليوناً من المواطنين.

في 19 ديسمبر/كانون الأول، تظاهر سكّان سيدي بوزيد. كانت تلك بداية ما سُمّيَ لاحقاً "ثورة الياسمين".

بعد مرور بضعة أيام، زار بن علي محمد البوعزيزي المسمّر على سريره في المستشفى.

صور مضحكة لرئيسٍ يظهر نفسه بمظهرٍ أبوي، ويلعن في باطنه هذا الفقير الدنيء الذي أطلق تصرّفه أولى الاحتجاجات. ومع ذلك، لم يبق هذا الأخير طويلاً، فقد توفّى في 4 يناير/كانون الثاني. بعد مرور عشرة أيام، نظام بن علي هو الذي أسلم الروح، وفرّ الرئيس، يبحث هنا وهناك عن ملجأ، ثم انتهى به المطاف بالهبوط في جدّة، أرض الإسلام التي لا

يمكنها رفض استضافة مسلم. أمّا بالنسبة لزوجته وعائلته، فقد سبقوه في مغادرة البلاد.

هكذا بات محمد البوعزيزي بطلاً بجسده المدافع. كانت تضحيته مفيدة. لا شكّ أنّ هذا ما كان يتمنّاه ، ولكن لا هو ولا أحد سواه استطاع أن يتنبّأ بما حدث. وما حدث هو بكلّ بساطة تاريخيّ. لم تنتفض تونس بسلمية وكرامة (الشرطة هي من استخدمت العنف وتسبّبت قسوتها بعشرات القتلى ومئات الجرحى) فحسب بل ونجح الشعب، الخاضع منذ ثلاثة وعشرين عاماً لدكتاتورية بصمت، في التخلّص من بن علي، ومن عائلته وبطانته المتاجرة والمافيوية.

في العام 2009، تمّ التجديد لبن علي في مهماته بنسبة مضحكة ومهينة في آن واحد (حينما يزعم المرء أنّ أكثر من 89 في المئة من المواطنين قد انتخبوه، فهو يسخر من العالم وفي اندفاعه يسخر من ذاته). خاصّة حينما يكشف مصدر موثوق أن 24,7 في المئة فقط من الناخبين التونسيين ذهبوا إلى صناديق الاقتراع. وما هو مضحك أيضاً، العريضة التي وقّعها بعد مرور بضعة أشهر بعض الشخصيات المحسوبة على النظام والتي تدعو بن علي لأن يترشّح في انتخابات 2014. الآن نكتشف فداحة ما قام به بن علي. بحسب الصحيفة التونسية، لا بريس، الصادرة بتاريخ 7 فبراير/ شباط 2011، كان يتمّ إخفاء الأرقام الحقيقية للبطالة والهجرة والفشل

المدرسي وسواه عن عموم الناس. ودائما بحسب هذه الصحيفة اليومية، تبلغ نسبة العاطلين عن العمل في صفوف المجازين في التعليم العالي 44,9 في المئة؛ و 29,8 في المئة بين الشباب الذين أعمارهم من 18 إلى 29؛ وقد هجر1,3 مليون من الشبان المدرسة بين 2004 و2009. أخيراً، يعترف 70 في المئة من الشبان التونسيين بالرغبة في الهجرة بكلّ السبل.

ولكن أبعد من كلّ الحقائق التي انكشفت والتي ستنكشف عن نظام بن علي، كان من نتيجة موت محمد البوعزيزي هو أنّه جعل من تونس نموذجاً للعالم العربي. لقد تحدّثنا بحق عن الموجة الصادمة، المعدية. ستكون مصر، في الأسابيع التالية، أوّل أمّة تقتدي بتونس، رغم وجود رئيس أكثر قدرةً، شرس وعنيد...

مصر

سيّد بلال

الإسكندرية: اسمه سيّد بلال، عمره ثلاثون عاماً، متزوّج وزوجته حامل. كان مسلماً ملتزماً، لا ناشطاً ولا محرّضاً. يعمل ولا يلفت الأنظار. يقيم بالقرب من محطة الظاهرية. مساء 5 يناير/كانون الثاني 2011، استدعاه الأمن الوطني: "مطلوب حضورك إلى القسم في الساعة العاشرة مساءً لمسألة تخصّك؛ أجلب معك غطاءً، قد تحتاج إليه". إنّه قسم شرطة الرمل. سيّد بلال رجل بسيط، فقير، إنّه مواطنٌ عادي. لا يسعد المرء قط باستدعائه من قبل الشرطة قي هذه البلدان. ولكن لأنّه لم يكن هناك ما يؤخذ عليه، استقلّ سيارة أجرة مرتاح البال وحضر في الموعد المحدّد. لم يرافقه أحد. لم يكن يدري أن ساعته تدنو. مَن كان بوسعه أن يدري؟ لدى سيد بلال سجل قضائي نظيف ولم تكن له أيّ صلة بشرطة بلده. ولكن لهذا السبب تمّ اختياره، إنّه رجل عادي.

بدأ الاستجواب بالتحقّق من هويته وبالأسئلة الروتينية.

كان سيّد هادئاً. لم يجرؤ على طرح السؤال الذي كان يحرق شفتيه:

- لماذا أنا هنا؟ ما الذي تأخذونه عليّ؟ ماذا ستفعلون بي؟ بماذا أخطأت؟

لم يقل شيئاً، أجاب عن الأسئلة وانتظر المنحى الذي سيأخذه الاستجواب. فجأةً، نقلوه إلى قاعةٍ أخرى. وبّخوه وأنزلوه إلى قبو. مكانٌ خفي، مكانٌ للتعذيب، مكانٌ لا يرشح منه أيّ شيء. لقد فكّرت الشرطة بكلّ شيء. عليها ألا تزعج الجيران. لا ضجيج ولا فضائح، لأنّه يحدث أن يصرخ بعض الناس حينما يُضربون بعنف. يعوون. وهذا يؤذي آذان الجلاّد ويخاطر بتمزيق الفلين الملصق بالجدران لامتصاص الضجيج. لم يكن سيّد قد نزل قط إلى أحد تلك الأقبية. كان قد سمع بها. وهو يعلم أنّ التعذيب يجري فيها. ولكنّه لم يفعل أيّ شيء يستدعي إساءة معاملته. بدأ يشعر بالقلق بعد أن كان هادئاً قبل ساعة. استذكر في ذهنه أحداث أيامه الأخيرة. تساءل: "هل قابلتُ شخصاً كان يجب ألا أقابله؟ ربّما شاهدوني مع متآمر، مع إرهابيّ خطيرٍ يسعى لزعزعة استقرار البلد؟ كلا، ذهبتُ إلى المدرسة، أنجزتُ عملي ثمّ عدتُ إلى بيتي، كانت زوجتي بحاجة إليّ، إنّها في شهرها السابع، لا أريدها أن تتعب، يأتي والداي غالباً لمساعدتنا. أفوّض أمري لله. نعم، ربّما هذا ما يغضبهم! الله! لا بدّ أنّهم يشتبهون في الذين يتّكلون على الله".

- ماذا كنت تفعل يوم السبت الماضي نحو منتصف الليل؟

- كنتُ نائماً في بيتي.

تلقّى الصفعة الأولى. كرّروا عليه السؤال. ثمّ أكدوا له بأنّه شوهِد في محيط كنيسة القديسَين، في ليلة 31 ديسمبر/كانون الأول، حيث فجّر رجلٌ نفسه موقعاً 23 قتيلاً وتسعين جريحاً.

لا شكّ أنّه سمع بهذه المأساة. فردّ بأنّه "كمسلم" لا يقتل البشر. هنا بدأت جلسة التعذيب فعلياً. يجب انتزاع اعترافات، حتى وإن لم تكن حقيقية، هذه هي الأوامر. الشرطة تريد مجرماً. ما لم يفِ التعذيب بالغرض سيُختَرع المجرم بأيّ وسيلة كانت. وهذا ما سيحصل مع سيد بلال. اعترف بأنّه سلفي، ومتمسكٌ بدينه بصرامة. أن يكون المرء سلفياً لا يعني أن يكون إرهابياً، خصوصاً وأنّ السلفيين يطبّقون حرفياً الأوامر الإلهية ولا يوجد في القرآن ما يقول بإلقاء القنابل على كنيسة أثناء قدّاس. ولكن الشرطة لا تريد سماع أيّ شيء. عليه أن يعترف. ولأنّ سيّد مسلمٌ متمسكٌ بدينه بصرامة، تركهم يعذّبونه بشدّة وفوّض أمره لله. إذا كان الله يدعوه إليه عبر هذه المحنة، إذا كانت تلك هي مشيئة الله، فماذا بوسعه أن يفعل؟ لم يعترف بشيء لأنّه لم يفعل شيئاً، وبالتالي ليس هناك ما يعترف به. انقضّ عليه الجلاّدون، وأذاقوه تعذيباً شديداً؛ تعلّموا ذلك في مدرسة الشرطة، وكان الأقدمون من بينهم قد

تدرّبوا في ألمانيا الشرقية. التعذيب يتطلّب احترافاً حقيقياً. وقد اشتهرت الشرطة المصرية غالباً في هذا المجال، وهذا منذ عهد جمال عبدالناصر. سيد هو المجرم المثالي لاعتداء 31 ديسمبر/كانون الأول. إنّه بريء، ولكن هذا عندهم سيّان. تريد وزارة الداخلية التوصّل بسرعة إلى نتائج، تريد أن تتباهى غداً بعرض رأس الإرهابي على الصحافة. استعجل رئيس شرطة الرمل جلاديه. ولكن عبثاً، فرغم العذابات التي أذاقوها للرجل ورغم تطوير تقنيات التعذيب، لم يقرّ سيد بلال بأيّ شيء، وذلك لسببٍ وجيه وهو أنّ ليس لديه ما يقرّ به. مات من جراء سكتة قلبية، وقد غطّت جسده بقعٌ زرقٌ وتورّمات وآثار جروح. كان الليل طويلاً بالنسبة للجميع. لسيئ الحظ سيد بلال، وللجلادين الذي كانوا منهكين وأرادوا العودة إلى بيوتهم ولقاء زوجاتهم وأولادهم. وكان طويلاً بالنسبة لرئيس القسم الذي لن يستطيع زفّ الخبر السار لرؤسائه. بالنسبة للوزير الذي كان عليه أن يقدّم في اليوم التالي الحساب لحكومته ويعترف بأنّ المتهم قد مات تحت التعذيب.

مساء الخميس 6 يناير/كانون الثاني، وضِعت الجثّة أمام مستشفى المدينة. راقبت الشرطة الموقف. لاحظ أحد الممرضين الجثّة فأدخلها إلى المستشفى وعثر معه على أوراق ثبوتية فاستدعى عائلته. في غضون ذلك، أوقفت الشرطة إبراهيم، شقيق سيد بلال. أرادت منعه من الكلام حول

الحادثة. حضر الأهل وتعرّفوا على الجثّة والتقطوا صوراً لآثار التعذيب وسط الأنين والنواح وقرّروا رفع شكوى. ولكن الشرطة تدخّلت في الحال وأفهمتهم أنّ إبراهيم في قبضتهم وإن لم يسلكوا طريق العقل فسيلقى نفس مصير شقيقه. فلم يتبق لهم سوى الدموع والدعاء. أمرتهم الشرطة بدفن ابنهم في نفس الليلة، تجنّباً ليوم الجمعة، يوم صلاة الجماعة. حاول الأهل مفاوضة الشرطة، ولكن ما بيدهم حيلة، إذ لن يُطلَق سراح إبراهيم طالما لم يمتثلوا للأوامر. كانوا يعلمون أنّهم سوف لن يترددوا في قتله. وفي النهاية، دُفِن سيد بلال قبل منتصف الليل بقليل.

هكذا تتصرّف شرطة حسني مبارك.

أيمن نور

مثال آخر: أيمن نور، تولّد المنصورة 5 ديسمبر/كانون الأول 1964، نائب ومحامٍ، مناضل في سبيل حقوق الإنسان ومؤسّس حزب "الغد" في العام 2004. ويطالب، كرجل ديمقراطي وليبرالي، بإصلاح الدستور الذي ينبغي أن يحدّد صلاحيات الرئيس مبارك ويفتح الانتخابات الرئاسية أمام عدّة مرشحين.

الجرأة على الترشّح ضدّ مبارك! يا لها من فضيحة! هذا قدحٌ للذات الرئاسية لا يمكن تحمّلها بالنسبة لمن يعتبر نفسه فرعون مصر. هذا الرئيس الذي وصل إلى السلطة بالصدفة لا يطيق أيّ معارضة وخاصّة مَنْ يجازف بمنافسته على منصبه.

فماذا فعلت الشرطة؟

قبل كلّ شيء رُفِعت الحصانة البرلمانية عن أيمن نور. ما

هي الذرائع؟ الأمر بسيط، حينما لا تكون هناك وقائع، يتم اختلاقها. اتُّهِم بتزوير التوكيلات لتأمين تشكيل حزب الغد. ثمّ سُحِب منه ترخيص مزاولة مهنته كمحامٍ. وبعدها أثاروا له المشاكل أينما وجِد. وحوّلوا حياته إلى جحيم. لم يعد لديه لا عمل ولا نيابة في البرلمان. فجافاه بعض أصدقائه وحوِّل الرجل إلى نكرة. في 24 ديسمبر/كانون الأول 2005، اعتُقِل وحكِم عليه بالسجن لخمس سنوات. وهو مصابٌ بداء السكّر ويحتاج للأنسولين. أضرب عن الطعام، فبدأت الصحافة الوطنية والعالمية تتحدّث عن حالته. حتى جورج دبليو بوش وصفه بالمنشقّ (يونيو/حزيران 2006). في 18 فبراير/شباط2009، أُطلِق سراحه لأسباب صحية.

في 28 يناير/كانون الثاني 2011، تظاهر إلى جانب مليون مصري. وتلقى حجراً كبيراً أصاب رأسه بجرحٍ خطير...

حركة كفاية

كلمة كفاية المصرية تعني في العربية: "هذا يكفي!"، "قف"، "كفى"، "ضقنا ذرعاً"، "لم نعد نحتمل"، "طفح بنا الكيل"، "لم يعد من الممكن أن يستمرّ هذا الوضع"...

هذا هو الاسم الذي اختارته لنفسها حركةٌ، جمعيةٌ للمجتمع المدني أُسِّسَت في يوليو/تموز 2004 في القاهرة. حركة علمانية وديمقراطية ومناصرة لحقوق الفرد. بدأت في 12 ديسمبر/كانون الأول 2004، بتنظيم تظاهرة ضخمة تدعو إلى إصلاحٍ ديمقراطي للنظام السياسي. وحثّت الناس على مقاطعة انتخاباتٍ 7 سبتمبر/أيلول 2005 كطريقة لتحديد موقفها من المهزلة السياسية التي يشغل فيها حزب الرئيس مبارك 90 في المئة من مقاعد مجلس الشعب البالغ عددها 454 مقعداً. فضلاً عن ذلك، هناك فقط أربعة أحزاب مرخّصة. يستولي حزب مبارك (الحزب الوطني الديمقراطي) على كلّ شيء. أمّا

الأحزاب الثلاثة الأخرى فهي شكلية. شعارات حركة كفاية هي: "كفاية جيش!"، "كفاية تسلّط!"، "كفاية استغلال!"، "كفاية خمس ولايات رئاسية!"، "كفاية محسوبية!"، "كفاية رقابة!"، "كفاية فساد!"، "كفاية تعذيب!".

نظّمت الحركة تظاهرة ضخمة أخرى ترفع نفس الشعارات في 12 ديسمبر/كانون الأول 2006 في خمس عشرة مدينة في البلاد. كما تناضل حركة كفاية ضدّ السياسة الإسرائيلية في احتلال الأراضي وعمليات القتل والاغتيال ضدّ الفلسطينيين في غزّة أو سواها. تتهم إسرائيل بأنّها دولة عنصرية ويأخذ أنصارها بشدّة على مبارك التزامه الصمت حيال ارتكاب الجيش الإسرائيلي المجازر ضدّ الفلسطينيين. كما يأخذون عليه عدم معارضته الاحتلال الأمريكي للعراق العام 2003.

في العام 2005، علّق مبارك علناً على حركة كفاية: "دائماً هكذا تبدأ الأمور، تأتي هذه الحركة من شبّان موالين للغرب، يثورون وينشرون الفوضى ولكنهم غير قادرين على الاستيلاء على السلطة فتستغلّهم جماعة الإخوان المسلمين التي تقبض الثمن".

في 4 مايو/أيار 2010، عقد اثنان من قادة هذه الحركة، وهما عبدالعزيز الحسيني وعبدالحليم قنديل، مؤتمراً صحافياً طالبا فيه بإنهاء نظام مبارك وَدَعَوَا إلى العصيان المدني.

بعد ثمانية أشهرٍ من ذلك، تمّت الاستجابة لدعوتهما وترك مبارك السلطة.

إسراء عبد الفتاح

كانت أحداث يناير/كانون الثاني وفبراير/شباط 2011 قد أُعدّت من قبل معارضة تعمل منذ عقود. وبالتالي ليس من قبيل الصدفة أن يخرج ملايين المصريين إلى الشوارع ويلفظوا هذا النظام ومنْ يرمز إليه بعجرفة وقسوة.

إسراء عبدالفتاح شخصية بارزة في هذه الحركة والتي يجب أن نكنّ لها احتراماً خاصّاً. إسراء عبدالفتاح، 28 سنة، مناضلة في سبيل الحقوق المدنية خاصّة وأنّها بارعة في استخدام الانترنت والفيسبوك. في العام 2008، شاركت في تأسيس حركة 6 أبريل/نيسان المعارضة وعملت في الأكاديمية المصرية من أجل الديمقراطية، وهي منظمة غير حكومية مموّلة من مؤسسة فريدريش نومان الألمانية.

إسراء عبدالفتاح هي من دعت عبر الفيسبوك الملايين من المصريين إلى النزول إلى الشوارع للإطاحة بمبارك. وجدت نفسها على الفور في السجن وظلّت فيه لخمسة عشر يوماً لأسباب وهمية. ولكنّها اليوم، وهي حرّة، غدت أيقونة لجيلٍ بأكمله.

300 قتيل في ثلاثة أسابيع

في غضون ثلاثة أسابيع، أحصى مراقبو الأمم المتحدة 300 قتيل في مصر. قُتِل الكثير من الناس في بداية الانتفاضة، حينما أطلقت الشرطة الرصاص الحيّ على المتظاهرين. ومن ثمّ هاجم أعضاء حزب مبارك المتظاهرين السلميين وأوقعوا بدورهم العديد من الضحايا. وهذه أسماء خمسة منهم اخترناهم من بين مئات القتلى الذين سقطوا في ثورة عفوية لا قائد لها:

- أحمد بسيوني، 31 سنة، أستاذ الفن المعاصر، أبٌ لطفلين. صباح 28 يناير/كانون الثاني، كتب ما يلي في صفحته على الفيسبوك: "أنا ذاهب لأستزدّ بعض الكرامة لبلدي". لحظة الخروج من المسجد، هاجمت الشرطة، توغّلت سيارة للشرطة وسط الحشد ودهست الناس، ومن بينهم أحمد.

- أحمد أنور، 19 سنة، مهندس، من مدينة طنطا، في دلتا النيل، وهو وحيد لوالديه. قُتِل برصاصةٍ في القلب.

- كريم بنونة، 29 سنة، مهندس، قُتِل برصاصةٍ في الرأس.

- إسماعيل عبدالقادر، 22 سنة، طالب، قُتِلَ برصاصةٍ في الرأس.

- سالي زهران، 25 سنة، قُتِلَت بضربة قضيبٍ معدني على رأسها.

ذات يوم، سيكون من الضروري نشر كامل القائمة الطويلة للأشخاص الذين قُتِلوا في تلك الأيام والليالي التي غيّرت إلى الأبد وجه وتاريخ أكبر بلدٍ عربي.

دور الإخوان المسلمين

نشأت حركة الإخوان المسلمين في مصر العام 1928، بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية؛ وقد أرادت لنفسها، في بداية تأسيسها، أن تكون لا عنفية. ويمكن اختصار أيديولوجيتها في نقطتين: نهضة الإسلام، والكفاح ضدّ الاستعمار والتأثير الغربي (الذي أدّى إلى ظهور العلمانية في البلدان العربية)؛ والكثير من القيم التي تتشارك فيها مع الوهابية السعودية. ولكن سرعان ما تحوّلت حركة الإخوان إلى حركة معارضة للاشتراكية الشعبية التي أراد عبدالناصر إقامتها في البلاد. في العام 1949، اغتيل أحد مؤسسي حركة الإخوان المسلمين. في العام 1957، حظر ناصر الحركة. اعتقل وحاكم وأعدم في العام 1966، سيّد قطب، أحد مفكّري هذه الجماعة، وهو رجل مثقّف سافر وزار فرنسا والولايات المتحدة. ومنذ ذلك الحين، لم يتوقّف الإخوان عن النمو والانتشار في غالبية البلدان العربية.

في العام 1980، قرّر حافظ الأسد التخلّص نهائياً من الإخوان المسلمين في سوريا. ولعلمه بأنّهم كانوا يجتمعون لعقد مؤتمرهم في مدينة حماة الصغيرة، تركهم يجتمعون ثمّ أعطى الأوامر للجيش بإغلاق المدينة ودكّها بالمدرعات. ووقعت مجزرة تُعدّ بعشرين ألف قتيل. لم يحرّك أحدٌ ساكناً.

من جهة أخرى، حتى وان كانت العقيدة الرسمية لحركة الإخوان هي نبذ العنف، نحن نعلم أنّ الرجل الثاني في تنظيم القاعدة (أصبح الآن الرجل الأوّل في التنظيم -المترجم-)، أيمن الظواهري، كان جزءاً منها قبل أن يفرّ إلى الخارج ويصبح أحد زعماء الإرهاب الدولي.

على الصعيد السياسي، لم يعترف النظام المصري قط بحركة الإخوان المسلمين كحزب ولكنّه تساهل معها. حيث ينتمي 88 من نواب البرلمان البالغ عددهم 454 إلى هذه الحركة ولكن ليس باسم الإخوان المسلمين.

في 6 فبراير/شباط 2011، التقى نائب الرئيس المصري عمر سليمان، الذي عيّن في هذا المنصب خلال الاحتجاجات المطالبة برحيل مبارك، وفداً من الإخوان المسلمين وناقش معهم رسمياً مستقبل البلاد. وهذا حدثٌ تاريخي.

هل يشكّل الإخوان خطراً على الجمهورية المصرية وعلى المنطقة؟ يُظهِر استطلاعٌ أنّه في حال أجريت انتخابات حرّة وشفّافة سوف يحصلون على نحو 20 في المئة من مقاعد

البرلمان. حتى وإن حلم الإخوان المسلمون بجمهورية إسلامية، فإنّ الشعب المصري بغالبيته لا يشاطرهم هذا الحلم. إنّ ما يطالب به الملايين من المتظاهرين (لم تكن هذه التظاهرات لا بمبادرة من الإخوان ولا بقيادتهم)، هو إنهاء النظام المستبدّ والفاسد لمبارك، هو الحرية والديمقراطية الحقيقية وإنهاء الاستغلال والإذلال.

لم يرفع المتظاهرون أي شعار يدعو إلى إقامة جمهورية إسلامية على النموذج الإيراني. الإخوان المسلمون جزءٌ من المشهد السياسي المصري. لا يمكن تجاهلهم ولا المبالغة في أهميتهم. إنّهم يناضلون من أجل نوعٍ من السلامة الأخلاقية في البلاد، من أجل العدالة واحترامٍ حقوق الإنسان. فتلتقي نضالاتهم مع نضالات المتظاهرين العلمانيين. من الآن إلى أن يصلوا إلى السلطة ويقيموا جمهورية إسلامية، يوجد هامشٌ واسع وتغيّرات كثيرة.

يؤكّد السوسيولوجي السويسري باتريك هايني، الأستاذ في معهد روليجيوسكوب، والمتخصص بشؤون العالم الإسلامي، في مقابلة مع صحيفة ليبراسيون، نُشِرَت في 8 فبراير/شباط 2011: "إنّ سيطرة جماعة الإخوان المسلمين على ديناميكية أسلمة المجتمع المصري في تناقصٍ". سوف يتم تجاوزهم من قبل ما يُسمّى "الإسلام المستنير" الذي "لا يهجس لا بالشريعة ولا بدولة إسلامية". ورداً على السؤال: "وما هي

النتيجة التي سيحصلون عليها في انتخاباتٍ حرّة؟"، يجيب: "يقدّم باحثون أرقاماً تقدّر بما بين 25 في المئة و30 في المئة من الرأي العام. هذا النوع من التقدير يثير ارتيابي لأنّه لا يأخذ بالحسبان الحيوية التي ستتشكّل في المشهد المصري لما بعد الاستبداد. سوف يتغيّر الإخوان المسلمون وسينقسمون على أنفسهم. أعتقد بأنّ الدرس الكبير لهاتين الثورتين، التونسية والآن المصرية، هو ظهور فاعلين جدد وبوسائل جديدة لممارسة السياسة تختلف عن كلّ الصيغ التقليدية، الإسلامية وسواها".

الإخوان المسلمون موجودون ومنظّمون جيّداً ولكنّهم لا يغطّون كل المجتمع، خاصّة وقد تمّ تجاوزهم من قبل الشباب الذين أوصلوا رسالة غضبهم وتمرّدهم عبر الوسائل الحديثة التي أتاحها الانترنت. ثمّ إذا كان هؤلاء الشباب يطالبون برحيل مبارك وإنهاء نظامه فهذا ليس لاستبداله بنظامٍ آخر شمولي ومتزمّت كالذي يمكن أن يُنسَب للإسلاميين. إنّ غرض هاتين الثورتين هو التحرير والحرية واحترام الإنسان وحقوقه وآرائه، وباختصار، تهدفان إلى بروز الفرد، الأمر الذي مُنِع حتى الآن من قبل كلّ نظم العالم العربي.

مراقبٌ آخر، وهو المصري خليل العناني، الأستاذ في جامعة دورهام في المملكة المتحدة، يقول: "إنّ الذين يتحرّكون، أي الشبيبة المنكبّة على الانترنت، قد قلبوا صفحة

التيار الإسلامي. تماماً مثل النظام، سيتأثّر الإخوان بهذه الثورة. في اللحظة الرّاهنة، يزدهر دورهم بفضل اضطهاد النظام لهم، ما أن ينتهي هذا الاضطهاد، ستخفت جاذبيتهم" (ليبيراسيون، عدد 8 فبراير/شباط 2011).

إذاً لقد تمّ تجاوز البرنامج الإسلامي تماماً. لقد ولدت شبيبة جديدة، تجاري شباب العالم برمّته والتي لم تعد تؤثّر فيها الشعارات الدينية القديمة المبتذلة. جيلٌ جديد من المصريين عاش في الخارج (أبناء المهاجرين في أوروبا وأمريكا وأستراليا) عاد إلى الموطن الأصلي لآبائه وينوي بناء مصر متحررة من التيار الإسلامي الرجعي والمتزمّت.

الثروة

بحسب صحيفة الغارديان البريطانية (6 فبراير/شباط 2011)، قدّر خبراء اقتصاديون (خاصّة كريستوفر دافيدسون، أستاذ العلوم السياسية وأخصّائي في شؤون الشرق الأوسط في جامعة دورهام) ثروة حسني مبارك بسبعين مليار دولار. وهذه الثروة مودعة في مصارف سويسرية وبريطانية وتُضاف إليها أموال غير منقولة في كلّ من لندن ونيويورك ولوس أنجلوس. وتزيد ثروة ولديه عن 8 و17 مليار دولار .

هذا بديهي ولا يحتاج إلى شرح.

نكتة

كلمة نكتة تعني "مُلحة" والمصريون معروفون بروح الدعابة وخفّة الظل. وها هي آخر نكتة تروى في مصر: مات مبارك ووصل إلى الجهنم. استُقبِل من قبل الرئيسين السابقين لمصر، أنور السادات وجمال عبدالناصر. سألاه: "هل قُتِلتَ بالرصاص أم بالتسميم؟" فأجاب مبارك: "لقد قُتِلتُ بالفيسبوك!".

الجزائر

من بين كلّ البلدان التي هُزّت أنظمتها بفعل الثورة في تونس وفي مصر، سوف تصمد السلطة في الجزائر أكثر وسوف لن تتردّد في إراقة دم المتظاهرين. فهذا نظامٌ عسكري استولى على السلطة منذ الاستقلال (1962). وكان الجيش دائماً تحت الطلب، سواء تحت قيادة الكولونيل هواري بومدين، الذي وصل إلى السلطة العام 1965 بانقلاب عسكري، أو تحت قيادة الشاذلي بن جديد، أو حالياً تحت قيادة الرئيس عبدالعزيز بوتفليقة، الذي وإن كان مدنياً، حيث كان وزيراً للخارجية في عهد بومدين، إلاّ أنّه أسيرٌ للجيش ويطيعه طاعة عمياء. المدني الوحيد الذي رفض الخضوع لمشيئة الجيش كان محمد بوضياف. ولم يستمرّ رئيساً للجمهورية سوى ستّة أشهر، إذ اغتيل في يونيو/حزيران 1992 وهو يلقي كلمة في اجتماعٍ.

الجزائر إذاً هي الجيش. إنّه السلطة الوحيدة في البلاد. لا يمكن لأيّ شيء أن يحدث خارج إرادته. إنّه يمسك بكلّ

السلطات ويتصرّف في الظل، تاركاً المدني بوتفليقة يحكم كواجهة. لم يعد هذا الأخير، وهو مريض ويفتقر للمصداقية السياسية، يمثّل الدولة كما أَمِل البعض بعد عودته من إقامة طويلة في سويسرا.

لقد مرّت الآن عشرون سنة على إعلان حالة الطوارئ التي تمنح الجيش السلطة المطلقة للحفاظ على النظام. وقد رُفِعت حالة الطوارئ مؤخراً، في منتصف فبراير/ شباط، كعلامة على إرخاء الجيش لقبضته.

ومع ذلك، يوم السبت 12 فبراير/ شباط 2011، حشد الجيش 30000 شرطي لمنع 2000 جزائري من التظاهر. وقد قام باعتقال المئات، بينهم أربعة نواب، وجرح العشرات خلال المواجهات العنيفة.

بين 6 و9 يناير/ كانون الثاني 2011، أي قبل شهر، أدى قمع التظاهرات ضدّ غلاء المعيشة - والتي دعت إليها التنسيقية الوطنية للتغيير والديمقراطية، الحركة التي تضمّ نقابات مستقلة وأحزاباً معارضة وجمعيات للمجتمع المدني- إلى سقوط خمسة قتلى وثمانمائة جريح. وخلال الفترة ذاتها، أُحصي ما لا يقلّ عن 25 محاولة انتحار حرقاً. مواطنون لم يعد بوسع معظمهم العيش في بلدٍ تُصادر مواردها الضخمة من قبل مجموعة من الجنرالات، مما جعل من بلدٍ غني أمّةً أبناؤها فقراء. ونحن نعرف أسماء وأحياناً قصّة بعضهم منشورة على المواقع الالكترونية:

- 13 يناير/كانون الثاني 2011: محسن بوطرفيف، 37 سنة، عاطل عن العمل، والد طفلة صغيرة، انتحر حرقاً أمام بلدية المدينة المعروفة بمناجمها بوخضرة في شرق ولاية تبسة.

- 14 يناير/كانون الثاني 2011: سمير ش. 26 سنة، محاولة انتحار حرقاً في جيجل، شرق الجزائر العاصمة.

- بعد فترة قصيرة، محمد عويشة، 41 سنة، مقيم في برج منايل، شرق الجزائر العاصمة، محاولة انتحار حرقاً أمام مقرّ وكيل الوالي. أنقِذ في اللحظة الأخيرة من قبل صديق. كان قد فقد مسكنه خلال فيضانات 2001. في العام 2003، دمّر الزلزال ما كان قد أنقذه من بيته ورمّمه. ومنذ ذلك التاريخ انتظر عبثاً أن تؤمّن له الدولة سكناً بديلاً. في بداية يناير/كانون الثاني، علِمَ أن ملفّه لم يصل...

- في ليلة 16 - 17 يناير/كانون الثاني 2011، ضُبِط عشرون مهاجراً سريّاً إلى إسبانيا من قبل القوات البحرية الوطنية في عرض البحر؛ فاختاروا إضرام النار في القارب؛ واحترق بعضهم، واختفى آخرون. صرّح أحد الناجين: "حتى الموت لا يرضى بي".

- 18 يناير/كانون الثاني 2011: انتحر كريم بن دين أمام بلدية دلس، 70 كيلومتراً شرق الجزائر العاصمة.

كلّ الذين انتحروا حرقاً، فعلوا ذلك أمام مقرّ ولاية أو

بلدية أو وزارة. الاحتجاج واضح: أنا أضحّي بنفسي متّهماً السلطة بدفعي إلى هذا العمل الذي لا يمتّ بصلة لا إلى ديني ولا إلى ثقافتي.

متّهماً السلطة التي ظلّت لا مبالية، صرّح حزب التجمّع من أجل الثقافة والديمقراطية: "بعد امتصاص الثروة الوطنية، لم يترك النظام القائم للشباب سوى خيار الموت انتحاراً. لم تعد المسألة معرفة ما إذا كان يجب تغيير النظام وإنّما إيجاد السبل والوسائل المناسبة لتجنيب الوطن الفوضى والمزيد من المصائب". (تصريحات نقلها موقع Adlène Meddi، lesinrocks.com بتاريخ 28 يناير/كانون الثاني 2011).

حالة الجزائر معقّدة: لا تزال عقابيل حرب التحرير موجودة؛ والعلاقات مع فرنسا معقّدة ولم تُلطّف؛ ويواجه الكثير من المهاجرين إلى فرنسا مشاكل الهوية من خلال الأطفال المولودين على الأراضي الفرنسية. وعلاقاتها مع جارتها المغرب سيئة جداً. حيث قضية الصحراء الغربية مستمرة منذ خمسة وثلاثين عاماً. تدعم الجزائر جبهة بوليساريو الاستقلالية وترفض أي تسوية بالتراضي، وتغلق حدودها أمام المغاربة، في حين قرّر المغرب فتح حدودها. ومع ذلك لا يكنّ الشعبان الجزائري والمغربي لبعضهما نفس الحقد الذي يحمله الجيش الجزائري حيال المغرب (متناسياً أنّ المغرب كان لأمدٍ طويل إلى جانب الجزائر وكان بمثابة قاعدتها الخلفية

خلال حرب التحرير). في المقابل، لا يطلب الشعبان سوى المصالحة لأنّ ما يهمّهما هو القدرة على التنقّل بحرية.

ستكون الانتفاضة الجزائرية طويلة وقاسية. إذا كان مبارك وبن علي قد استسلما، فذلك لأنّ الجيش أرغمهما على ذلك؛ في الجزائر، الجيش هو الذي يحتجّ الناس ضدّه، وسوف لن يستسلم، على الأقل ليس بسهولة ما تمّ في مصر وتونس. ستكون هناك حاجة لأن يوجد داخل هذا الجيش ضباطٌ يلتحقون بالاحتجاجات الشعبية، الأمر الذي يجازف على الأرجح باندلاع حرب أهلية مثلما حدث بعد العام 1991. حربٌ أهلية انتهت بأكثر من مائة ألف قتيل...

اليمن

أوّل ما نلاحظه لدى الوصول إلى صنعاء، عاصمة اليمن، هو أننا في مكانٍ وزمانٍ لا صلة لهما بالعالم الغربي. نحن في الشرق، بعيداً، بعيداً جداً عن انتماءاتنا الذهنية والنفسية. أتذكّر أنني كنتُ مصدوماً طيلة زيارتي لهذا البلد. لم أرتح للحظة واحدة، إذ إن كلّ السكان مسلّحون، إمّا ببندقية أو بخنجرٍ تقليدي على الحزام (حتى المراهقون يحملون سلاحاً). نحن نعلم أنّ أرثور رامبو قد وجد هناك الاغتراب المطلق والمثالي للهروب من الكآبة الفرنسية وانخرط في الاتجار بالأسلحة ومغامرات أخرى...

ذات يوم، عاد أحد المسلمين الأوائل إلى الأرض ليرى ما أصبح عليه العالم الإسلامي في القرن الواحد والعشرين، وعرضت عليه المملكة العربية السعودية، حارسة الأماكن المقدّسة للإسلام والجارة المباشرة لليمن، أن يعاين الأرض من طائرة، فنظر، وهو يحلّق فوق البلدان الخليجية، من نافذة

الطائرة وحاول أن يتبيّن ما على الأرض. ولكنه لم يتعرّف على أيّ شيء إلى أن لمح أخيراً اليمن، فتعرّف عليه بلا صعوبة - فهو البلد الوحيد الذي ظلّ على حاله كما عرفه قبل رحيله... لم يتحرّك أيّ شيء فيه، كلّ شيء بكر. هذه النكتة التي تُروى أحياناً لإضحاك السائح تلخّص كفاية حكاية هذا البلد المتحجّر في الماضي.

لقد أُخبرتُ أنّ اليمن يعيش حياته اليومية على إيقاعٍ مختلفٍ عن بقيّة العالم. يجب أن نرى ذلك لنصدّقه. يومياً، قبل منتصف النهار تماماً، يهرع الرجال إلى السوق لشراء كفايتهم من القات، وهو نباتٌ أخضر يشبه النعناع، إنّه "مخدّر" حقيقي يلوكونه حتى منتصف الليل. يكاد لا يحدث أيّ شيء في فترة ما بعد الظهيرة.

ولكن تحت هذا المظهر الموحي بأنّ هذا البلد منعزلٌ تماماً عن الحداثة وجامد، يعاني اليمن حالة من الغليان والأزمة الدائمة. اندلعت حروب أهلية عديدة بين اليمن الشمالي ذي النزعة الإسلامية (السنّية) واليمن الجنوبي الذي يقيم فيه اليهود والمسيحيون. لم يوقِف التوحيد الرسمي بين الشطرين، في 22 مايو/أيار 1990، تفجّر حالات العنف هذه. من جهة أخرى، عزّز تنظيم القاعدة من تواجده في الشمال. ولكن اليمن لم يكتفِ بهذه المشاكل الداخلية الخطيرة. في العام 1962، زرع التدخّل العبثي والأحمق لجمال عبدالناصر في الحرب التي شنّها شطرا اليمن المزيد من الفوضى. ولكن

كان للرئيس المصري مطالبات بأراضٍ من جاره اليمني، وهذه الحرب، التي لا يتذكر أحدٌ اليوم أسبابها، انتهت بسقوط الآلاف من القتلى.

كما كان لليمنيين علاقات متوترة مع المملكة العربية السعودية. إنّهم يقدّمون في الواقع غالبية اليد العاملة المهاجرة التي تقوم بالأعمال المضنية التي لا يلوّث السعوديون الأصليون أياديهم بها...

حتى العام الماضي، كان الرئيس علي عبدالله صالح، الذي يطالب المتظاهرون اليوم برحيله، والموجود في السلطة منذ اثنين وثلاثين عاماً (إذا ما حسبنا السنوات التي كان خلالها رئيساً لليمن الشمالي)، كان يجد استمراره في الحكم أمراً طبيعياً تماماً. وكمعظم زعماء دول المنطقة، تشبّث بالسلطة بطريقة عُصابية. في 2 فبراير/شباط 2011، مقلّداً في ذلك صديقه مبارك، وفي مسعى لتهدئة المتظاهرين، أعلن أنّه لن يترشّح في الانتخابات الرئاسية المقبلة... لم يصدّقه أحد... أدركت شبيبة البلاد، على فقرها الشديد، أنّه كان يكذب. وعلى غرار مثيلتيها في تونس ومصر، وصلت إلى الإعلام عبر الانترنت وأدركت أن صالح سوف لن يستجيب لمطلبها في الحرية والكرامة. لم تكن تنازلات الرئيس كافية ولم تهدأ المعارضة.

ككلّ الطغاة الذين يتمّ الطعن في شرعيتهم، لم يتردّد علي

عبدالله صالح في إطلاق الرصاص الحي على المتظاهرين. في 18 مارس/آذار 2011، ارتكب قتلة من فرقة للموت ومرتزقة يعملون لصالح الطاغية مجزرة: 51 قتيلاً والمئات من الجرحى.

بعد ذلك بقليل، بينما كان المسؤول الرئيسي عن أعمال العنف، أعلن علي عبدالله صالح حالة الطوارئ وقلّل من خطورة ما حدث.

في اليوم نفسه، خرجت تظاهرات في أربع مدن سورية، الأمر غير المألوف مطلقاً في هذا البلد المحكوم منذ الأبد بجهازٍ أمني موجود في كلّ مكان وقاسٍ. والنتيجة: أربعة قتلى والعشرات من الجرحى. في سوريا، لن يتردّد بشار الأسد، هو الآخر، في إعطاء الأمر بإطلاق النار على الحشود. فدعا الجيش الذي قتل المئات من المتظاهرين. منذ أكثر من نصف قرن، ارتهن العالم العربي في عمومه للطغاة والحزب الواحد والقمع الشديد للحرية. هناك قائمة طويلة لزعماء دول وصلوا إلى السلطة بقوّة السلاح أو بطريقة التوريث، كما هي الحالة في سوريا، وبمساعدة أجهزة الأمن التي شكّلها الاتحاد السوفياتي. استمرت هذه اللعنة طويلاً. لقد آن الأوان فعلاً لأن يُطرَد هؤلاء الطغاة من السلطة وأن يُعتَقلوا ويُحاكموا.

المغرب

حينما نجحت الثورة التونسية في الإطاحة ببن علي وبدأ جزائريون بالتظاهر، وجّه الرأي العام والصحافة العالميان نظرهما نحو المغرب، متوقّعين عدوى محتملة. لو كان المغرب لا يزال تحت سلطة الحسن الثاني، لو كانت "سنوات الرصاص" لا تزال سارية، لقام الشعب المغربي، من دون تردّد، بثورته. ولكن المغرب لم يعد كما كان. مع محمد السادس، بدأت الإصلاحات بعد فترة وجيزة من اعتلائه العرش في يوليو/تموز 1999. لنحاول إلقاء نظرة على مجمل القضايا باختصار.

أحد أوّل قرارات محمد السادس كان فتح ملفّات القمع الذي ساد إبان عهد والده وتشكيل لجنة للاستماع إلى شكاوى ضحايا عمليات الاعتقال وحالات التعذيب، الخ... وقد تمّت دراسة 29 ألف ملف من قبل هذه اللجنة بشكلٍ علني، وعُوِّض على الكثير من الضحايا من قبل الدولة. "لن يستمرّ هذا الوضع بعد الآن!"، كانت تلك هي رسالة الملك. ومنذ ذلك الوقت،

لم يعد هناك تعذيبٌ في مفوضيات الشرطة، ولم تعد هناك اعتقالات تعسّفية، ولم يعد هناك سجناء سياسيون. حتماً لا يزال بعض رجال الشرطة المتحمسين يرتكبون بعض الأخطاء. تسمح تقارير منظمة العفو الدولية وهيومن رايتس ووتش، وكذلك تقارير الرابطة المغربية لحقوق الإنسان، المستقلّة عن السلطة، بمتابعة ذلك. ظلّت الأساليب مشدّدة فقط في مجال مكافحة الإرهاب.

استعادت الصحافة بعض حريتها، أقول "بعض" لأنّ هناك مواضيع محظورة: الحياة الخاصّة للملك وعائلته، الإسلام، وكلّ ما يمسّ بالوحدة الترابية للبلاد، خاصّة ما يتعلّق بقضية الصحراء. بالنسبة لبقية المسائل، يكتب الصحافيون ما يشاؤون كتابته وفي حالات التشهير، يتدخّل القضاء. ومع ذلك ليست الصورة وردية تماماً. فقد اضطرّت صحفٌ لأن تتوقّف عن الصدور ("لو جورنال" و "نيشان") من فرط المضايقات من قبل السلطات التي لا تستطيع نسيان عهد الرقابة؛ وحُكِمت على أخرى بغرامات باهظة. ولكن حرية التعبير تتقدّم، وإن كانت لا تزال خاضعة للرقابة.

تحسّنت أحوال المرأة مع القانون الجديد للأحوال الشخصية (المدوّنة). وأُنجزت مشاريع مهمة للبنية التحتية: طرق سريعة، موانئ، مساكن اجتماعية، الخ.

ولكن لا يزال على المغرب أن يجابه مشاكل جسيمة.

البطالة في صفوف الشباب (وخاصّة المجازين منهم) مرتفعة ومقلقة جداً. الفقر حقيقيّ ويمسّ جزءاً كبيراً من الشعب

المغربي. وفي المقابل، تغتني أقلّية وتخلق هوّة واسعة بينها وبين بقية المغاربة. بعض الأشخاص المقرّبين من الملك يستغلّون وضعهم للقيام بأعمال رابحة. لا تكفّ الصحافة عن فضحهم؛ ولكنّ هذا لا يردعهم ويواصلون أعمالهم التجارية بعجرفة. لا يعلّق الملك على ذلك. وهذا يصدم كثيراً الشعب، لا سيما وأنّ الصحافة الناطقة بالعربية، المقروءة أكثر، تستفيد من ذلك. لا يزال هناك الكثير من عدم المساواة ومن الظلم.

الأمّية آفة. وهي تشمل ما يقارب 40 في المئة من المغاربة، خاصّة في الأرياف. أخيراً، الفساد ينخر في البلاد. أنشأ الملك لجنة لمكافحة الفساد، ولكنّ عملها صعب لأنّ من خصوصية الفساد هو أنّه لا يترك آثاراً وبالتالي لا توجد أدلّة عليه، الأمر الذي يعقّد عمل العدالة والإدارة.

في ما يخصّ الحياة السياسية، تترسّخ عادات ديمقراطية تدريجياً ويتأسّس العديد من الأحزاب. فالتيار الإسلامي، على سبيل المثال، ممثّلٌ بحزبٍ في البرلمان منذ أن اختار نبذ العنف والمشاركة في الاقتراع العام. الديمقراطية ليست أداة، إنّها ثقافة، والمغرب يستوعب هذه الثقافة الآن. نحن بعيدون عن دولة نموذجية وخالية من النواقص، ولكنّ التقدّم ملحوظ. لم تمرّ الثورتان التونسية والمصرية من دون أن يفطن لهما أحد في المغرب وقد كانت لهما ارتدادات على الحياة السياسية... وينتظر الرأي العام، المحبط من الأحزاب القائمة، الكثير من الملك. نشرت المجلّة الناطقة بالفرنسية تيل كيل (Tel Quel) في عددها 461، 19-25 فبراير/ شباط 2011 "خمسون إجراء

لجعل المغرب أفضل" - وقد أوضحت المجلّة أن الثورة ستتمّ مع محمد السادس. وهذه بعض تلك الإجراءات:

- تخفيف البروتوكول الملكي.
- رئيس وزراء يقود فعلاً.
- إلغاء عقوبة الإعدام.
- مناقشة ميزانية البلاط الملكي.
- منع تعدّد الزوجات.
- إشاعة الأمن الاجتماعي.
- ضمان حرية العبادة.
- استقلالية القضاء.
- مكافحة الأمية.
- مراجعة قوانين الميراث.
- مراجعة قانون الصحافة (إلغاء الرقابة).
- إلغاء الوزارات السيادية.
- وضع حدّ للاعتقالات التعسفية.
- إدراج العلمانية في الدستور.
- على البرلمان أن يراقب قانون المالية.
- مراجعة المناهج المدرسية.
- حريات سياسية حقيقية وحرية تأسيس الجمعيات.

الكثير من هذه المقترحات يمكنها أن تُطبّق سريعاً، إذا ما قرّر الملك أخذها بالحسبان. وحدها المقترحات التي تمسّ شخصه وعائلته قد تكون صعبة التحقيق، بسبب ما يُدعى "المخزن"، وهو نظامٌ لقوانين وقواعد غير مكتوبة، موروثٌ

من أجداده، ينظّم عمل النظام الملكي بطريقة تقليدية ولا يحتمل أيّ اعتراض .

في اللحظة التي أكتب فيها هذه السطور، 9 مارس/آذار 2011، علمتُ أنّ محمد السادس قد وجّه خطاباً للأمّة. خطابٌ متلفز لمدّة اثنتي عشرة دقيقة، مهم وتاريخي. فهو يقترح "إصلاحاً دستورياً شاملاً" يقرّ بـ"تعددية الهوية المغربية، الموحّدة والثرية [...] تتمثّل فيها "الأمازيغية" [أي اللغة والثقافة البربريتين]، التراث المشترك لكلّ المغاربة".

دعا إلى "تعزيز دولة القانون" و"استقلالية القضاء" مع سيادة الدستور والمساواة بين الجميع. لقد أكّد أنّ "الحكومة ستنبثق عن الإرادة الشعبية التي يُعبّر عنها عبر صناديق الاقتراع"، وأنّ الوزير الأوّل سيُختار من الحزب الفائز بالانتخابات؛ وسيكون الوزير الأوّل هذا "رئيس سلطة تنفيذية مسؤولة" كما تطرّق إلى وضع المعارضة وضمان احترام حقوق الإنسان.

إنّه خطابٌ ثوروي لأنّه يهزّ بطريقة جديدة تماماً أسس نظامٍ تقليدي لا شريك له. وقد أجمعت المعارضة المغربية كما الصِحافة العالمية على الترحيب به. لم تكن احتجاجات 20 فبراير/شباط 2011 كلّها هادئة وسلمية. حدثت عمليات نهب في مرّاكش كما في طنجة وسقط خمسة قتلى من جراء إحراق مصرفٍ كان الموظفون لا يزالون يعملون فيه. أمّا الاحتجاجات التي نظّمت في 20 مارس/آذار بمبادرة من حركة 20 فبراير/شباط والجمعية المغربية لحقوق الإنسان ومنتدى الحقيقة

والعدالة وجمعية "أتاك المغرب" والحركة الإسلامية المتشددة، العدل والإحسان، فقد مرّت من دون حوادث تُذكَر. كانت اللافتات التي يرفعها الرجال والنساء تطالب باستقالة عباس الفاسي، رئيس حكومة بلا فاعلية، بلا خيال، بلا أهمية. كما كانت تطالب بـ"إنهاء الفساد" ، "دستور مستمد من الإرادة الشعبية" ، "العدالة" ، ورفع البعض الشعار: "الملك يجب أن يملك، لا أن يحكم". وعلى لافتة مكتوبة بالعربية، والأمازيغية والفرنسية، استطعنا أن نقرأ: "لا تسرق بلدي"، وعلى أخرى: "ارحل يا DST" (مكتب مراقبة الأراضي). يبدو أنّ الإصلاحات المقترحة من قبل الملك في خطاب 9 مارس/ آذار غير مرضية للمحتجين. فهم متلهّفون ولا يريدون أن يكونوا منسيين في هذا الربيع العربي الذي يعيش، في الوقت الذي يتظاهرون فيه، لحظات مأسوية في ليبيا وسوريا واليمن والبحرين. إنّ الاعتداء الذي ارتُكِبَ في مرّاكش في 29 ابريل/ نيسان 2011، على الأرجح من قبل تنظيم القاعدة، كان هدفه كبح حيوية الإصلاحات التي وعد بها الملك. ولكن العكس هو الذي حدث. يتقدّم المغرب ويواصل ثورته السلمية مع ملكه.

ليبيا

منذ تونس، منذ مصر، لم يعد أيّ شيءٍ كما كان من قبل في العالم العربي. حتى وإن لن يخرج بالضرورة الآلاف من المتظاهرين غداً إلى شوارع الجزائر العاصمة وصنعاء وعمّان وطرابلس والدار البيضاء، فمن المؤكّد أنّ هاتين الثورتين ستؤثّران، عاجلاً أو آجلاً، على الطريقة التي سيُعامَل بها المواطن العربي من قبل المسؤولين. تحدّثنا في البداية عن العدوى، عن الموجة الصادمة، ولكن ثمّة أمرٌ آخر، أكثر عمقاً: لزمنٍ طويلٍ جداً خضع المواطن العربي للمظالم وشاهد عاجزاً امتهان كرامته وخال له أنّ اللامساواة الاجتماعية هي قرارات إلهية وأنّ الله يشاء ذلك قدرياً.

حالة ليبيا فعلاً مختلفة. لقد أقفل نظام القذافي، وهي دكتاتورية من طرازٍ خاصٍّ جداً، كلّ الأبواب. لا شيء يرشَح، لا شيء يخرج من هذا البلد. لم يستطع صحافيٌّ واحد أن يعمل بحرية ويروي ما يحدث فيه منذ عشرات السنين. التعتيم

مطلق. يتم تخمين الأمور وتخيّلها. ولكن لا أحد يعلم شيئاً عمّا يعيشه ويعانيه الشعب الليبي في الواقع.

نقطة مهمة: ليبيا ليست دولة، إنّها تجمّعٌ لعشائر وقبائل يسيطر عليها القذافي بنوعٍ من الوهم العبثي. لا توجد حكومة بمعنى الحكومة في البلدان الحديثة، لا يوجد برلمان ولا أحزاب سياسية. القذافي نفسه هو الضامن لوحدة ليبيا. نوعٌ من الدولة التي لا مثيل لها في أيّ مكانٍ آخر. تلك هي الخدعة التي ابتدعها بكلّ تفاصيلها الضابط الشابّ الذي استولى على السلطة العام 1969 ليسيطر تماماً على البلد واضعاً شعبه تحت غطاء رصاصيٍّ وزارعاً فيه القناعة بأنّه "سيّد مصيره". عملية تدليسٍ لطالما قبلها العالم أجمع. وبسبب هذا الوضع الخاصّ جداً، من الصعوبة الفائقة إزاحة جماعة القذافي من دون أن تتخبّط البلاد في الفوضى. في كلّ الأحوال، سوف لن يرحل من تلقائه... سيموت وفي يده السلاح... إلا إذا باشرت الأمم المتحدة فوراً باعتقاله. ولكن للنجاح في ذلك، لا بدّ من الكثير من التخيّل والجرأة، لأنّ كل تدخّل خارجي سوف لن يؤدّي إلا إلى تعزيز موقفه. منذ أن استولى القذافي على السلطة، لم نسمع قطّ عن احتجاجٍ عليه أو معارضة له أو اضطرابات. أتكون محاولات تمرّدٍ قد حدثت وسُحِقَت بدموية وصمت؟ سنكتشف ذات يوم حجم المجازر التي ارتكبها هذا الطاغية بعجرفة وبإفلاتٍ تامٍّ من العقاب. إنّ القبائل التي ستستطيع

إزاحته من السلطة، سيكون لها واجبٌ تاريخي بمحاكمته هو وعائلته واستجوابه أمام محكمة للجرائم التي ارتكبوها طيلة أكثر من أربعين عاماً.

حتى الآن، بسبب موارد الطاقة في البلاد، كانت أوروبا مجاملة للغاية حيال هذا النظام المجرم. مَن لا يتذكّر النزوات الشاذة والتبذير المفرط للقذافي أثناء تنقلاته في العواصم الأوروبية؟ حتى قبل عامٍ من الآن، كان الجميع يلبّون طلباته ويتجرّعون الإهانات مبتسمين... لأنّ زعماء الدول من أمثال نيكولا ساركوزي وسيلفيو برلوسكوني وجوزيه لويس ثاباتيرو مؤخراً، كانوا يأملون لقاء ذلك أن يوقّعوا معه صفقات ضخمة. البعض منهم نجح في ذلك. خُدِعَت فرنسا ولم تنل شيئاً بعد زيارة سال فيها الكثير من الحبر.

السلطة في ليبيا متكتلة بطريقة هستيرية. مع أنّ القذافي - مثله مثل حافظ الأسد في سوريا أو مبارك في مصر- اعتقد بأن السلطة وراثية وأنّ نجله سيف الإسلام سيخلفه بعد وفاته، إلا أنّ الأمور سوف تتغيّر. عرف الليبيون ذلك ونزلوا إلى الشوارع متحدّين المدرعات والطائرات التي أطلقت عليهم الرصاص الحي. في بداية مارس/ آذار 2001، ذكرت رابطة حقوق الإنسان (المحظورة) في ليبيا أنّ عدد القتلى قد بلغ ستّة آلاف منذ بداية الاحتجاجات في أواسط فبراير/ شباط.

كيف يمكن إنقاذ الشعب الليبي؟ لا بدّ أنّ التدخّل

الخارجي سيكون صعباً. لا يزال المثال الأمريكي في العراق حاضراً لردع أيّ محاولة مماثلة. وحده الشعب الليبي سيعرف كيف يتخلّص من هذا الطاغية.

عبثيات القذافي

قائمة التصرّفات المتهافتة للعقيد القذافي طويلة وهي تمتدّ إلى بداية استيلائه على السلطة في نهاية ستينات القرن المنصرم. ومن المفيد أن نستعرض بعضها لنرى على نحو أفضل أيّ نمطٍ خاصّ من الطغاة تواجه المقاومة الليبية منذ بداية العام 2011.

بإطاحته الملك إدريس السنوسي في الأوّل من سبتمبر/ أيلول 1969، أراد الشاب معمّر القذافي أن يقلّد مثاله الأعلى، الرئيس المصري عبد الناصر. فاقترح مباشرة الوحدة مع مصر، ثمّ مع سوريا، وأراد تعريب أفريقيا وفرض أن تكون جوازات سفر زائري البلاد مكتوبة باللغة العربية، وابتدع جمهورية سماها "الجماهيرية" وقرّر، فضلاً عن ذلك، تعديل التقويم الهجري، الذي يبدأ بهجرة النبي محمد ﷺ نحو المدينة المنوّرة العام 622 ميلادي، ليبدأ بعام وفاة النبي.

وكلّ وثيقة لا تلتزم بهذا التعديل تُرَدّ أو تُرمى في حاوية القمامة...

كما اقترح القذافي وحدةً مع المغرب. فمنحه الحسن الثاني، الذي يعرف شخصية القذافي وجنونه، هذا الجميل وهو يعرف أن هذه الوحدة سوف لن تستمرّ فصلاً واحداً. وهذا ما حصل. حينما قام المغرب، في نوفمبر/ تشرين الثاني 1975، بـ "المسيرة الخضراء" إلى الصحراء (أكثر من ثلاثمائة ألف مواطن من كلّ أنحاء البلاد ساروا سلمياً نحو الصحراء الغربية التي كانت حتى ذلك الحين محتلة من قبل الإسبان)، روى الحسن الثاني بأنّ القذافي اتّصل به وعرض عليه السير إلى جانب الأخوة المغاربة. شكره الملك وقال له: "كلا، هذه مسألة محض مغربية". وردّاً على سؤال أحد الصحافيين إن كان هذا هو السبب الوحيد لرفض عرض القذافي، أجاب الحسن الثاني: "كلا، إذا أعطيتُ الأوامر لقواتي بالتوقّف، ستستجيب وتتوقّف، أمّا قوات القذافي فسوف لن تفعل سوى ما تريد...".

بعد فشل كلّ محاولاته في الوحدة، بدأ القذافي بتمويل الإرهاب الدولي: وخاصّة الجيش الجمهوري الايرلندي IRA وحركة إيتا ETA الباسكية، وبعض الحركات الأخرى. بعد 11 سبتمبر/أيلول 2001، أدرك بأنّه لم تعد لديه مصلحة في أن يُدرَج ضمن قائمة الدول الإرهابية. فتوصّل إلى تسوية مع الأمريكيين والأوروبيين. وهكذا استطعنا أن نسمع بوريس

بوايون، سفير فرنسا في العراق، ثمّ في تونس، وهو يؤكّد في برنامجٍ تلفزيوني في العام 2010: " كان القذافي إرهابياً، وهو لم يعد كذلك. لقد مارس نقداً ذاتياً. [...] في الحياة، يرتكب المرء كلّ الأخطاء، ولكن للجميع الحقّ في التكفير عن أخطائه." اليوم، بدلاً عن ذلك، يمارس القذافي الإرهاب ضدّ شعبه بإطلاق القنابل والصواريخ عليه.

يولي القذافي، مثله مثل بن علي ومبارك، أهمية كبيرة لمظهره الخارجي. يحبّ نفسه؛ نرجسيته مضحكة. يحبّ التأنّق ويغيّر ثيابه ثلاث مرّات في اليوم. ويرتدي باستمرار سترة واقية من الرصاص. ويقال إنّ حتى عمرته مصفّحة! يفرد شعره شعرة بشعرة على رأسه ويصبغه باللون الأسود. يسيطر عليه دائماً وسواس أن يصبح أصلع. بحسب شهود كثيرين، من بينهم رئيس مراسمه الذي نجح بالفرار، يتعاطى المخدّرات كثيراً. وهذا يبدو على وجهه المنتفخ، المليء بالتجاعيد والغضون. له نظرة مسكونة بالنار أو بنوعٍ من البخار الذي يجعله غائباً. ذكرت بعض الصحافيات اللواتي أجرين معه مقابلات بأنّه حاول إغواءهنّ.

في العام 2009، أثناء خطابٍ متهافت أمام المجلس العام للأمم المتحدة، لوّح القذافي بميثاق الأمم المتحدة ورماه. صُدِم الحضور ولكن لم يجرؤ أحدٌ على إلزامه بالنظام.

مثالٌ آخر، وهذه المرّة شخصي. حينما نشرتُ في يناير/

كانون الثاني 1975 في صحيفة "لوموند" الفرنسية أوّل تقريرٍ من الداخل حول الحجّ إلى مكّة - كان تقريراً نقدياً وقاسياً -، كان الوحيد من بين زعماء الدول الإسلامية الذي تدخّل لدى الحسن الثاني وطلب منه معاقبتي.

أخيراً، عائلته ليست أفضل منه. أولاده الكثيرون على شاكلته. أشهرهم، المدعو هانيبال، بالغ في الطيش والمجون بحيث تعرّض لمشاكل جدية مع القضاء السويسري الذي تخاذل في النهاية. سمح له الابتزاز الاقتصادي وأخذ الرهائن في ليبيا بالتخلّص منها مع أنّه كان قد اعترف بضرب زوجته وموظّفي منزله. وكان الغربيون يعرفون كلّ هذا. في صالونات السفارات، كانت تروى نكات حول هذيانات عائلة القذافي، ولكن ظلّوا يغمضون أعينهم - باسم النفط وبعض العقود التي لم توقّع أبداً في نهاية المطاف...

اللاشرعية والإفلات من العقاب

حينما نسافر إلى ليبيا، بدءاً من المطار، نشعر وكأننا عدنا فجأةً إلى زمن الدول الشرقية الاستبدادية. أجهزة أمنية مرتابة ومتعددة، بالزي الرسمي أو المدني. نحن في بلدٍ متخيّلٍ من قبل جورج أورويل وفرانز كافكا معاً. كلّ شيء ساكن وعبثي وغريب. يُراقَب المرء ويُرصَد ولا يكون مرتاحاً. كانت الليلة الأولى التي قضيتها في الفندق مؤرقة. حيث من المستحيل أن تخلد للنوم. لولا مساعدة السفير الفرنسي الذي استقبلني لما استطعت البقاء في ذلك البلد الذي سبّب لي الصداع والشعور بالغثيان. نحن نشعر بهذه الأمور ولا نفسّرها دائماً. الأمر الثاني الذي يلاحظه المرء، هي حالة الجمود التي تعيشها البلاد. جُمِّد كلّ شيء عند التاريخ المقدّر للأوّل من سبتمبر/ أيلول 1969، اليوم الذي قام فيه نقيبٌ شباب منح نفسه رتبة عقيد بانقلابٍ عسكري واستولى على السلطة. الناس حزانى لأنّهم

مستسلمون ولا حول ولا قوّة لهم. ليست هناك دولة، ولا حكومة، ولا انتخابات، في كلّ الأحول، ليست هناك حياة سياسية كالتي نعرفها في بقية العالم.

في المقابل، أينما حللت تجد معمّر القذافي، الرجل السماوي، الرجل الذي أذاب البلاد في قدرٍ سحري. لا يوجد أيّ شيء آخر. حتى القرآن الكريم استُبدِل بكتابٍ آخر، الكتاب الأخضر، الذي يضم أفكار الزعيم العظيم. إنّه في الوقت نفسه: الدستور والكتاب المقدّس والمرجع الوحيد والسامي للبلاد. النجاح في إركاع شعبٍ بأكمله وجعله يتجرّع مقولات شاذّة وغير منطقية وبإبقائه وسط الجهل والفقر، هذا هو ما نجح هذا الرجل في إنجازه منذ اثنين وأربعين عامًا، من دون التردّد في سحق أيّ محاولة للمعارضة. لا صحافيون، لا شهود، فالقذافي في منجى من النقد، إنّه السيّد المطلق والمتعجرف. لقد ذُكِرَت غالباً اضطراباته النفسية. لا حاجة لأيّ تحليلٍ متطوّر للتأكّد من ذلك. يكفي النظر إليه: نرجسيته مرضية؛ أنانيته مثيرة للشفقة؛ عنجهيته مخيفة.

كان يمكن أن يلقى مصير صدام حسين بعد أن تورّط في هجومين على طائرتين مدنيتين راح ضحيتهما 440 شخصاً (طائرة "البوينغ" العائدة لشركة "بان - أمريكان" التي فُجِّرَت فوق "لوكربي" في 21 ديسمبر/ كانون الأول 1988 وراح ضحيتها 270 شخصاً؛ والطائرة الفرنسية DC-10 العائدة لشركة

"يوتا" التي فُجِّرَت فوق النيجر في 19 سبتمبر/ أيلول 1989 وراح ضحيتها 170 راكباً).

ولكنّه نجا من المسألة. القذافي ماكر؛ فبعد أن أدين بعدّة قرارات من مجلس الأمن وتعرّض للمقاطعة لسنواتٍ عديدة، سارع إلى القبول بكلّ ما كان الأمريكيون يطلبون منه ودفع 2,7 مليار دولار لكي "يتدارك" المصيبة التي تسبّب بها أزلامه.

اليوم، يتوعّد نجله سيف الإسلام، وعلى التلفاز، المتظاهرين بـ: "نهرٍ من الدم". في صباح 21 فبراير/ شباط، كان عدد القتلى قد وصل إلى 233 (ولكن كيف يمكن الحصول على أرقام دقيقة؟ مرّة أخرى، لم تكن هذه الأرقام سوى تقديرات هيومن رايتس ووتش). وسوف تُرتَكَب مذابح أخرى، لا يمكن تجنّب ذلك، لأنّ الابن كما الأب، متوحّشان لا يعرفان سوى شريعة الدم والقمع الوحشي والإفلات من العقاب. ولكن إذا كان القذافي قد أعطى الأمر بإطلاق الرصاص على الليبيين، فهذا لأنّه يدرك بأنّه قد أُدين وبأنّه سيكون عليه عاجلاً أم آجلاً مغادرة السلطة والبلاد. إنّ وعد ابنه بمنح البلاد دستوراً هو أمرٌ موهِم. يعرف القذافي ذلك بحيث لن يغادر إلا بعد أن يقتل من الليبيين أكثر ما في وسعه. إنّه رجلٌ خطير: "يدافع عن نفسه" وكأنّ أحداً قد هاجم منزله الخاصّ. لأنّ ليبيا منزله، خيمته، ملكه الشخصي. لا يفهم

كيف يجرؤ الناس على الاحتجاج على استيلائه على ما يعتبره ملكيته. ولذلك يقتل. ليس لديه أيّ مبدأ للحقّ، ولا لما هو مشروع أو ليس مشروعاً. طيلة حياته، عاش واضعاً نفسه فوق القوانين، حتى الدولية. من تلك الأعالي التي يحلّق فيها، يسحق بلا مزاج، بالأسلحة الثقيلة، متظاهرين يطالبون بالعيش بكرامة وحرية وديمقراطية. وهذه قيمٌ لا تشكّل جزءاً من عالمه. في كتابه الأخضر، اخترع طريقة جديدة لحكم الشعب وإخضاعه وذلك بإعطائه انطباعاً بأنّه من يدير مصيره الخاصّ. إنّها كذبة وخزيّ.

ولكنّه حينما يزعق، وأبناؤه في إثره، بأنّه سوف يموت في ليبيا، يتكلّم كحيوانٍ مطاردٍ لم يعد يدري إلى أين يذهب. لن يوافق أيٌّ من "أصدقائه" على استقباله بعد الآن ويرضخ كما في السابق لأهوائه. الآن، تتحرّك الأمم المتّحدة. وكذلك الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة. لقد انتهى وضعه الاستثنائي في المجتمع الدولي نهائياً، وربّما ستتمكّن المحكمة الجنائية الدولية من محاكمته ذات يوم.

تحية لمحمّد النبوس

هذا المهندس في الاتصالات رمزٌ لمقاومة بنغازي. إنّه نقيض القذافي. عبر موقعه الالكتروني تنبّه الرأي العام العالمي إلى المجازر التي كان مرتزقة القذافي يرتكبونها من دون عقاب. لقد صوّر بكاميراه صوراً مرعبة ثمّ نشرها. كان على اتّصالٍ مع "ستريت بريس" التي أرسل إليها بانتظام معلوماته. هو الذي صرخ: "لا تنسوا ليبيا"، مذهولاً لرؤية وكالات الصحافة الأجنبية وهي تغادر بنغازي، هو الذي لم يكفّ عن المطالبة بنجدة شعبٍ في خطر، تلقى رصاصةً أطلقها قنّاص. كان يصوّر هجمات الجيش الليبي ضدّ السكان المدنيين...

ها هو ما كتبه على موقعه، يوم الأربعاء 16 مارس/آذار، قبل مقتله بثلاثة أيام: "اسمعوا أيّها الأصدقاء. لا يهمّ اليوم إن كنّا أقوياء أو ضعفاء. ما يهمّ، هو أن نحيا أو نموت، وعلينا أن نفعل شيئاً الآن".

هكذا نعته زوجته: "مات محمد".

إنّها حامل.

القرار 1973

ليلة السابع عشر - الثامن عشر من مارس/ آذار 2011، ورغم تحفّظ البعض، وبعد الكثير من التلكّؤ، وبفضل فرنسا، صوّت أخيراً مجلس الأمن الدولي على القرار 1973 بقصد إنقاذ السكان المدنيين من الشراسة القاتلة للقذافي ومرتزقته. ربّما يمكن تفسير هذا التأخّر وهذه التحفظات كالتالي: سيكون بعض أعضاء الجامعة العربية وكذلك الولايات المتحدة قد خضعوا لضغوطات سعودية (والأرجح أيضاً من سوريا والجزائر) لوضع حدٍّ لرياح الانتفاضة هذه. لا ينسى أحد أنّ الجيش السعودي قدّم مساعدة للسلطة في البحرين في سبيل قمع الاحتجاجات الصاخبة. بحسب وكالة "رويترز" للأنباء، في 15 مارس/ آذار 2011، قُتِل على الأقلّ مائتا شخص في المواجهات بين متظاهرين وقوات حفظ الأمن في المنامة.

ولكن القرار 1973 والضربات الجوية الجديدة سوف لن

تكفي لتسوية المشكلة الليبية طالما أنّ الولايات المتحدة، بعد العراق وأفغانستان، لا تريد "التدخّل" بطريقة مباشرة في بلدٍ إسلاميٍّ ثالث. القذافي قادرٌ تماماً على القيام بهجومٍ داخل البلاد على قوات متمردة، سيئة التجهيز وغير منظّمة وبلا تدريبٍ عسكري، تماماً كما في الخارج، وذلك على سبيل المثال بأن يوقظ بين ليلة وضحاها خلاياه النائمة في العالم لجعلهم يقومون باعتداءات في كلّ مكانٍ من العالم تقريباً. إذاً لا بدّ للأمم المتحدة من أن تتكفّل بالضرورة بتوقيفه بأسرع وقتٍ ممكن ومحاكمته. ولكن ثمّة شكّ في هذا الأمر، فالقذافي هو من النوع الذي يتحسّب لكلّ شيء...

الخاتمة

"العمامات القديمة"، الطغاة، رجال الأمن، المخابرات (أجهزة الاستخبارات)، كلّ الذين مارسوا السلطة بطريقة فظّة، الذين ارتكبوا جرائم ولم يعاقبوا عليها، حائرين ومضطربين اليوم. غير قادرين على تحليل الأزمة الحالية. أن تثور شعوبهم وتنتفض كان بالتأكيد آخر شيء يتوقّعونه. كانوا يخالون أنّهم قد قمعوها وأهانوها وسحقوها بما يكفي لئلا تستيقظ أبداً. لقد أثبتت الوسائل التي استخدموها نجاعتها في بلدان أمريكا اللاتينية، وفي البلدان الشيوعية في العهد السوفياتي، كما في بعض البلدان الأفريقية، ولم يكن هناك من سببٍ لتغييرها. مارس جميع الزعماء العرب الدكتاتورية بطريقة متقنة وذلك بتأمين ظهورهم، ومن ثمّ كان الزمن والغرب يقفان إلى جانبهم أو على الأقلّ لا يناوئانهم. لم يفكّروا قطّ أن سقوطهم سيكون بهذه القسوة والحتمية. من جهة أخرى، نرى أنّهم مارسوا كلّ أنواع الرعب: أطلقوا جميعاً النار على الجماهير وقتلوا ودأبوا على حماقتهم وضاعفوا من وحشيتهم.

إبان هذا الربيع، اكتشف هؤلاء الطغاة أنّ رياح الحرية التي هبّت من بلدٍ صغير أقوى وأعنف من كلّ الزوابع التي أثاروها حينما قمعوا وعذّبوا وقتلوا مواطنين، جريمتهم الوحيدة هي المطالبة بالحرية والكرامة.

اليوم، بعد ليبيا، حان دور سوريا لتترنّح، هذه الدكتاتورية القديمة الممارسة من الأب إلى الابن منذ واحدٍ وأربعين عاماً. إنّها لحظة تاريخية، إذ للمرّة الأولى منذ نصف قرن ينزل الناس إلى الشوارع للتنديد بوحشية هذا النظام. وطبعاً ردّت السلطة، في 15 مارس/ آذار 2011، بقسوة على المتظاهرين في درعا (المدينة التي تقع على مسافة 100 كيلومتر إلى جنوب دمشق) وذلك بقتل مائة شخص بينهم أطفال.

ستدافع هذه الأنظمة عن نفسها بكلّ الوسائل، لأنّ قادتها يعلمون بأنّ ليس لديهم أيّ شرعية وليس أمامهم أيّ مكانٍ يذهبون إليه. هذا ما يحصل للقذافي وهذا ما سيحصل لبشار الأسد ما لم يتخلَّ عن القسوة والجريمة. هذا العنف التحريري سوف لن يستمرّ بالقمع. إنّه حيوي وخلاّق. إنّه ثمرة جيلٍ من الشباب، عاش بعضهم في الخارج وفتحوا، بخلاف آبائهم، النوافذ المطلّة على العالم. لقد شاهدوا كيف يعيش شبابٌ آخرون، وتأكّدوا كم أنّ الحرية هي مرادفة للحياة. وكمن في حلمٍ، استشفوا بأنّ لديهم أيضاً إمكانية العيش على نحوٍ أفضل والتّخلّص من الدكتاتوريات واستعادة بعض الكرامة. ولكن

كيف؟ وبأيّ وسائل؟ ببساطة عبر التواصل وتبادل الأفكار والمشاريع. العالم واسع ولكنّه الآن في متناول اليد. لم يعد الزمن يتقدّم بنفس السرعة مذ استطاعت المعلومة أن تُنشَر تقريباً في نفس اللحظة. اليوم يتساءل كل هؤلاء الشباب كيف استطاع آباؤهم القبول بالعيش في ظلّ دكتاتوريات قذرة. خصوصية هذا الجيل الجديد هي التالي: لا يخاف! إنّ حالة الليبي محمد النبوس بليغة. في سوريا، خرج فتية وكتبوا شعارات مناهضة للنظام على الجدران: فتمّ اعتقالهم على الفور وعذّبوا بوحشية؛ ولكن في اليوم التالي، أعاد فتية آخرون الكرّة.

تنتشر رسالة هذا الجيل في كلّ مكان. جيل متنوّع - فشبيبة تونس ليست شبيبة مصر - ومتماثل في آنٍ واحد. يعيش في البلد ويتواصل مع الذين يعيشون خارجه. يشترك في نفس المطالب ونفس الحاجات الملحّة. لم تتوقّع الأنظمة المستبدة هذا الأمر، ليس هذا فحسب بل ولا تفهمه. لقد اكتشفوا أنّ هذه الانتفاضة غير قابلة للتفاوض وأنّ لا شيء سيوقفها. هذا هو الأمر الجديد والتاريخي.

ما ستسفر عنه هذه الانتفاضات في المستقل ليس مؤّكداً بعد. ستكون هناك أخطاء وتردّد وحيرة وربّما أعمال جائرة، ولكن ما هو مؤكّد أنّه لن يتمكّن دكتاتورٌ بعد الآن من الدوس على كرامة الإنسان العربي. لقد علّمتنا هذه الانتفاضات أمراً

بسيطاً والذي لطالما ردّده الشعراء: في مواجهة المهانة، عاجلاً أم آجلاً، سيرفض الإنسان العيش راكعاً، وسيطالب مجازفاً بحياته بالحرية والكرامة. هذه حقيقة عالمية. إنّها لسعادة كبيرة أنّ الشعوب العربية هي التي تذكّر، في ربيع العام 2011 هذا، العالم بهذه الحقيقة.

بالنّار

1

وهو يعود من المقبرة حيث دفن والده، شعر محمد بأنّ الحمل الذي يقع على كاهله أصبح أكثر ثقلاً. كان محني الظهر، شائخاً، يمشي بتمهّل. كان قد بلّغ لتوّه الثلاثين من العمر. لم يحتفل قط بعيد ميلاده. كانت السنوات تمرّ وتتشابه. أضفى الفقر والحاجة والانقياد التام على حياته حزناً غدا مع مرور الوقت طبيعياً. وكوالده، لم يكن يتشكّى أبداً. لم يكن قدرياً ولا حتى متديناً .

قَلَبَ موت والده كلّ خططه. فهو البكر وبالتالي المسؤول عن العائلة من بعد والده. ثلاثة أخوة وأختان، ووالدة مصابة بداء السكّر ولكنّها لا تزال سليمة البنية. مرّة أخرى، لم تُثمر رحلة بحثه الأخيرة عن أيّ شيء وأغضبه ذلك. لم تكن مسألة حظّ أو صدفة. وإنّما اعتقدها قضية ظلم مرتبطة بمصيبة كونه وُلِدَ فقيراً. لم يعد يذهب للجلوس أمام مقرّ وزارة المال

للاحتجاج ضدّ البطالة. كان مجازون عاطلون عن العمل قد وجدوا عملاً، أما هو فلم يجد فرصته. لم تكن إجازته في التاريخ تهمّ أحداً. كان بوسعه أنّ يعلّم في المدارس، ولكن وزارة التربية الوطنية لم تعد تطلب مدرّسين. أخرج حقيبته القديمة المخبأة في خزانة الألبسة وأفرغها من كلّ الأوراق والوثائق التي تحتويها، بما فيه شهادته الجامعية، وكدّسها في المجلى وأحرقها. شاهد ألسنة النار وهي تلتهم الكلمات، وتفادت،كما لو كان بالصدفة، اسمه وتاريخ ميلاده. ألهب النار بقطعة خشب إلى أن أصبح كلّ شيء رماداً.

هرعت أمّه مستنفرة برائحة الحريق:

- أنت مجنون! بماذا يفيدك حرق شهادتك الجامعية؟ ماذا ستفعل الآن لتتقدّم إلى وظيفة معلّم مدرسة؟ ضاعت ثلاث سنوات هباءً منثوراً!

لم يجب عليها بشيء، لمّ الرماد، رماه في الحاوية، نظّف المجلى، غسل يديه ثمّ انصرف. كان هادئاً، لم يرغب في الكلام أو تبرير تصرّفه. لماذا سيترك قصاصة ورقٍ لن تنفعه في شيء؟ كان مقطّب الوجه. ذكّرته أمّه بأنّه كان عليه إحضار دوائها. لن يطلب الصيدلاني تسديد ثمن الدواء فوراً. جلس على مقعدٍ في حديقة وحدّق في الأرض وهو يتابع بنظره رحلة رتلٍ من النمل. طلب سيجارة من صبي يبيع السجائر بالمفرّق، أشعلها ودخّنها ببطء. كان النمل قد وضع حمله وعاد ومرّ في الاتجاه الآخر.

2

اتّخذ قراره: سيعمل على عربة والده. كانت في حالة سيئة وسيكون عليه إصلاح عجلاتها وتبديل أحد ألواحها الخشب التالفة وضبط الميزان والاتصال مع بوشعيب، لتزويده بالفاكهة والخضراوات. ولكن أين سيجد المال؟ كانت والدته قد باعت كل مصاغها حينما مرِض زوجها ولم يعد لديها شيء. كان قد سمِعَ عن "القرض الصغير". استعلم عن الأمر، فأعطي له ملفٌّ ضخم ليقوم بإملائه. ولكن سرعان ما أحبط الكمّ الكبير من الأوراق المطلوبة همّته. بدأ يندم على إضِرام النار في وثائقه الدراسية. فاز محمد برحلة إلى مكّة من خلال سحب يانصيب خيري أجرته كلية الآداب التي درس فيها. في المرّة الوحيدة التي حالفه الحظّ، لم يستطع الاستفادة منه. ماذا سيفعل ببطاقة الطائرة؟ أولاً، لم يكن لديه أيّ رغبة في أن يحجّ إلى مكّة، ومن ثمّ لم يكن يملك المال الضروري لإتمام

هذه الشعيرة؛ حاول كثيراً أن يقبض قيمة البطاقة من شركة الطيران، ولكنّها لم تستجب لطلبه. لم يبق أمامه سوى العثور على حاجٍّ يبيعه البطاقة. نجح في أخذ ثلث ثمن البطاقة ولكنّه اضطرّ لأن يرشي موظّف الشركة ليقبل بتبديل الاسم الوارد على البطاقة. مزوّداً بماله القليل، أصلح العربة وشرع أخيراً في بيع البرتقال والتفاح.

3

كان محمد يعلم أنّ بوشعيب رجلٌ فاسد وعديم الاستقامة؛ غالباً ما أخبره والده بذلك. ادّعى بأنّ والده مدينٌ له وبأنّه لم يدفع آخر فاتورتين. كيف يمكن التحقّق من ذلك؟ كان عليه التفاهم مع هذا الشخص لأنّه الوحيد الذي كان يؤجّل دفع ثمن البضاعة - وذلك بإضافة نسبة تتراوح بين 10 و15 في المائة. لم يجادله محمد، دفع له سلفة عن صندوقين من البرتقال وصندوقٍ من التفاح؛ كما أخذ بعض علب الفراولة.

نحا به بوشعيب جانباً وسأله همساً عن أخبار شقيقته الصغيرة. ردّ محمّد بأنّها بخير وتحضّر لشهادة الثانوية.

- أنت تعلم أنّ والدك كان قد وعدني بها. أريد أن أتزوّج وأؤسّس أسرةً، يمكننا أن نصبح شريكين. سوف لن تعتاش بالعربة. هناك منافسة وللحصول على مكانٍ تقف فيه، لا بدّ أن

تكون على علاقات حسنة مع الشرطة.

نظر إليه محمد، أخفض رأسه ثمّ انصرف من دون أن يتفوّه بكلمة.

لم يدرِ أين يقف. كان البعض يتنقّلون وكان آخرون قد وجدوا مكانهم الاستراتيجي، وهو عموماً بجانب إشارة مرور أو مستديرة. وسرعان ما تبيّن له أنّ أفضل الأماكن قد حُجِزَت. فاختار أن يدفع عربته ويجول بها ويتوقّف من حينٍ إلى آخر. صرخ وهو يردّد مزايا برتقاله وتفاحه. ولكن صرخاته تاهت وسط صخب أبواق السيارات. لم يكن أحدٌ يسمعه. ولأنّه توقّف للحظة بجانب متجر بقّالٍ، طرده هذا الأخير في الحال وشتمه: "ما بك؟ وأنا الذي أدفع الضرائب والرسوم، كيف سأعتاش إن وقفت أمام حانوتي مباشرة؟ هيا، إرحل!".

فقضى يومه الأوّل بالكامل متجوّلاً من شارعٍ إلى آخر. ومع ذلك نجح في تصريف أكثر من نصف بضاعته. أدرك بأنّ عليه الاستيقاظ باكراً صباح اليوم التالي إذا أراد مكاناً مناسباً قبل أن يصل الآخرون. أثناء تناول العشاء، نظر إلى أخته الصغيرة وتخيّلها بين ذراعي بوشعيب. شعر بالخجل. فتاة صغيرة بريئة بين ذراعي رجلٍ فظّ. أبداً لن يحصل ذلك.

4

بعد العشاء أخبر أمّه بأنّ بوشعيب طالبه بمالٍ.

- لم يكن والدك يطيق الديون؛ كان يدفعها بأسرع ما يمكنه. بوشعيب رجلٌ سافل. ليست لديه أدلّة. لا تبالي به. هل فكّرت بشراء دوائي؟ لم يتبقّ لديّ سوى حبّة واحدة.

أخرج محمد صندوقاً مليئاً بالكتب وفرشها أمام البيت ليبيعها. كتب تاريخ وروايات جيب ثمّ موبي ديك بطبعته الأصلية، ذات الغلاف الجلدي؛ كان عبارة عن الجائزة التي نالها في الصف الرابع الثانوي لنيله المرتبة الأولى في اللغة الانكليزية. باع ثلاثة كتب، واشترى بثمنها الدواء. احتفظ بكتاب موبي ديك الذي لم يرغب به أحدٌ. في الليل، أعاد قراءة بضع صفحات منه واكتشف تراجعه قليلاً في اللغة الانكليزية. قبل أن ينام، فكّر في زينب الجميلة، التي يحبّها منذ سنتين؛ ولكن بلا مال، بلا عمل، بلا سكن، من

المستحيل أن يتزوّج. كان حزيناً، بماذا يمكنه أن يعدها، وهو الذي لا يملك شيئاً ليقدّمه لها؟ فكّر بأنّ هناك أولويات، وبأنّه سينجح إذا ما أنجز الأمور تدريجياً وأن زينب سوف تنتظره.

5

كانت زينب تعمل سكرتيرة عند طبيب. وكانت تحبّ محمد بإخلاص. ولأنّها كانت الفتاة الوحيدة، اقترحت عليه أن يتزوّجها ويأتي للعيش مع والديها. ولكن محمد كان عزيز النفس ولم يكن وارداً بالنسبة له أن يكون عالةً على أسرتها ويسكن في منزل حميه.

غالباً ما كانا يتواعدان في المقهى. يتحدّثان كثيراً ويدوران ثمّ يقهقهان. مضى أكثر من ثلاثة أشهر من دون أن يتمكّنا من الالتقاء بمفردهما ليمارسا الحبّ. في المرّة الأخيرة، أعارتهما ابنة عمّ زينب شقّتها الصغيرة لأنّ شريكتها في الإيجار كانت مسافرة.

قالت زينب:

- ذات يوم، سنخرج من النفق؛ أعدك بذلك؛ أنا أرى

ذلك وأشعر به. ستحصل على عملٍ مناسب وسأترك هذا الطبيب الدبِق وسنمارس حياتنا؛ سوف ترى!

- نعم، ذات يوم، ولكنكِ تعلمين جيداً بأنني سوف لن أركب قط في هذه المراكب المريبة لأصبح لاجئاً غير شرعي. أعرف مخططكِ: كندا! نعم، سنذهب جميعاً إلى كندا وسنذهب جميعاً إلى الجنّة. هذا مكتوبٌ في مكانٍ ما. ولكن الآن علي أن أُطعِمَ عائلة مكوّنة من عدّة أفراد وأعالج والدتي وأكافح من أجل إيجاد مكانٍ مناسبٍ لعربتي.

أمسكت زينب بيديه وقبّلتهما. فعل الأمر نفسه.

6

استيقظ في الساعة السادسة. حاول أن يقلّل قدر المستطاع الضجّة لئلا يوقِظ أشقاءه الذين ينامون معه في نفس الغرفة. نبيل، عشرون عاماً، وهو دليلٌ سياحي غير معتمد وغالباً ما كانت له مشاكل مع الشرطة. ونور الدين، ثمانية عشر عاماً، طالب في الثانوية، ولكنه يعمل في مخبزٍ منذ مساء الجمعة وحتى صباح الاثنين. ثمّ ياسين، خمسة عشر عاماً، ذكيّ وكسولٌ ووسيمٌ ولطيف. كان يعد أمّه بأن يصبح مليونيراً ويأخذها لزيارة الأهرامات. دخل محمّد إلى الحمام وتناول قطعة خبز وأخرج عربته التي وضع عليها صندوق الكتب. عند زاوية شارعهم الضيّق، أوقفه شرطي مرور:

- هذه عربة العجوز؛ أين هو؟

- مات.

- وأنت تحلّ مكانه وكأنّ شيئاً لم يكن؟

- وما المشكلة؟ ليس ممنوعاً أن يسعى المرء لكسب قوته بشرف.

- يا لوقاحتك! هات أوراقك...

أعطاه محمّد كلّ الوثائق التي كانت في حوزته.

- لا يوجد تأمين. تخيّل لو أنك دهست طفلاً، من سيدفع؟ أنت؟

- منذ متى تحتاج عربة فاكهة إلى تأمين؟ هذا أمرٌ جديد.

أخرج الشرطي مفكّرة وأخذ يكتب وهو ينظر إلى محمد بطرف عينه. ثمّ قال له:

- أنت أحمق، لا تريد أن تفهم.

- أنا لم أفعل شيئاً؛ أنت مَنْ يفعل كلّ شيء لتمنعني من الذهاب إلى العمل.

- هيا، لا بأس، ولكن فكّر في التأمين، أقول هذا لمصلحتك.

أخذ ملء يديه الاثنتين برتقالاً وتفاحاً؛ قضم تفاحةً ثمّ قال، وهو ممتلئ الفم:

- هيّا، امشِ، إذهب...

7

وجد محمد مكاناً مناسباً، كان الوقت لا يزال باكراً. أوقف العربة وانتظر. توقّفت أوّل سيارة، أنزل السائق البلور وطلب: "كيلو من كلّ نوع واختر النوعية الجيّدة". كان الزبائن الذين جاؤوا بعده أقلّ استعجالاً؛ فنزلوا من السيارة وجسّوا الفاكهة وسألوا عن سعرها وساوموا وأخيراً اشتروا بعض البرتقال.

بعد مرور ساعة، وصل بائعٌ آخر مع عربة مزيّنة، أكثر جاذبية وأكثر امتلاءً وخاصّة بالفاكهة الغريبة والغالية والنادرة. كان له زبائن معتادون. بنظرة وبإشارة خفيفة من رأسه، أعلم محمد بأنّ عليه أن يغادر المكان. فامتثل من دون اعتراض. ومن جديد شرع بالتجوال. فكّر بأنّه قد أمضى فترة صباحية جيّدة وأنّه سيجد في المرّة القادمة المزيد من الخيارات.

في نهاية النهار، كان قد باع كلّ بضاعته. عاد إلى بوشعيب ليجدّد حِمله.

في المساء، رغم التعب، مرّ لمقابلة زينب في بيت والديها اللذين كانا يحبّانه كثيراً. تحدّث لها عن نهاره وتناولا فطائر ثمّ افترقا.

8

في هذه اللحظة، كانت أم محمد تستقبل رجل أمن بزيٍّ مدني. طرح أسئلة عن محمد وسألها لماذا لم يعد يتردّد على مجموعة "المجازين العاطلين عن العمل". أجابت المسكينة متردّدة وقلقة. سلّمها رجل الأمن استدعاءً كان على ابنها تلبيته في نفس المساء. فأخذت تبكي، مدركةً أنّ الشرطة لا تجلب قط أخباراً سعيدة. خيِّل لها أنّ من المفيد أن تخبره: "ابني لا يعمل في السياسة". لم يردّ الرجل بشيء وانصرف.

حينما سلّمت الورقة لمحمد، نظر إليها ثمّ دسّها في جيبه.

- سأذهب في الحال. لا بدّ أنّهم سيطرحون علي بعض الأسئلة. إن لم أذهب، سيأتون لأخذي وعندها سيكون الأمر أخطر.

- يا ولدي، لقد رفعت هذه الزيارة نسبة السكّر في دمي.

شعرت بذلك، فقد جفّ فمي وشعرتُ بأنني لستُ على ما يُرام.

- هؤلاء الناس يقبضون أجوراً لخلق المشاكل لنا؛ إذا ما بحثتِ سوف تكتشفين أنّ الشرطي ينحدّر من عائلة فقيرة مثلنا. ولكن كما تعلمين، الفقراء لا يحبون بعضهم...

9

في مفوضية الشرطة، انتظر محمد طويلاً على مقعد. كان ينهض من حين لآخر ويحاول إيجاد شخص يستطيع أن يخبره لماذا تمّ استدعاؤه. تجاهله الجميع. اعتقد بأنّ الأمر يتعلّق بتخويفه. فقد سبق وأن ضُرِبَ في بداية تظاهرة حملة الشهادات العاطلين عن العمل. كان بجانبه رجل مسنّ بادي البؤس لم ينبس بكلمة وكان النعاس يغالبه. ما الذي يمكن أن يؤخَذ على هذا الرجل الذي يسعل والذي من الأولى أن يكون في غرفة مستشفى. ابتعد عنه محمد خشية أن يكون مصاباً بالسلّ.

كانت هناك أيضاً امرأة ترتدي جلباباً، تدخّن سيجارة بعد أخرى وتلعن الحياة.

- كنتُ سعيدة في قريتي؛ لماذا يا إلهي، تزوّجت هذا الأحمق الذي هجرني الآن؟

اتّخذت من محمد شاهداً:

- أمارس البغاء! لا أخجل من قول ذلك. ولكن سيتغيّر كلّ هذا ذات يوم، سوف ترى، كنتُ دائماً أملك الحدس، لا يمكن لهذا أن يستمرّ...

نحو منتصف الليل، أشار إليه رجل بأن يتبعه.

تحقّقٌ من الهوية واستجوابٌ تقليدي.

كان الشرطي مهتماً بمسألة انقطاعه عن التردّد على رفاقه القدامى في النضال. أراد أن يعرف إن كان قد استماله الأصوليون.

- كلا، إنّ موت والدي هو الذي كركب حياتي. أنا أعمل على عربته، مورد رزقنا.

- نعم، أعلم. كيف تسير الأمور؟

- بالكاد بدأت بالعمل.

- أنت تعلم، لا توجد معجزة؛ يوجد الذين يتدبّرون أمورهم ويكتسبون مالاً لا بأس به، ثمّ هناك الآخرون، السذّج، الأشخاص المساكين. ولك أن تختار.

استغرق محمد بعض الوقت ليفهم الصفقة التي يعرضها الشرطي عليه: إما أن يصبح مخبراً ويحظى بمكانٍ يدرّ عليه مردوداً جيّداً أو يرفض خدمة الشرطة ويودّع تجارته.

- فكّر جيّداً. غداً سأقابلك عند دوّار الاستقلال. عد إلى بيتك.

أدرك في اليوم التالي أنّه إذا حضر إلى المكان المحدّد، سيكون مرغماً على القبول بعرض الشرطي.

في الصباح الباكر، أخذ بسطته وتوجّه إلى حيّ شعبي بعيدٍ عن الدّوار الشهير.

10

لم يكن سكّر والدته مستقراً. كان يجب تغيير الدواء ومراجعة الطبيب. أجرى حساباته. لم يكن لديه ما يكفي من المال لمواجهة هذا المصروف المفاجئ. فقرّر أخذها إلى المستشفى الحكومي. ورافقتهما شقيقته ذات الثمانية عشر ربيعاً. تركهما أمام مدخل المستشفى وذهب ليبيع بضاعته. بدا له أن مدخل المستشفى مكانٌ ممتاز لإيقاف عربته. كان الزوّار يشترون فاكهة لتقديمها للمرضى. بعد مرور ساعة، وقف عنصران من الشرطة، أحدهما امرأة، أمامه:

- أوراقك.

أعطاهما الأوراق.

- هذه ليست حارتك. ماذا جئت تفعل هنا؟

- جلبتُ والدتي للعلاج؛ تعاني من داء السكّر.

- ولدٌ بار! وستكون باراً أكثر إن رحلت من هنا. هذه المرّة لن ندفِّعك الغرامة. لقد أخبرناك. لا تعُدْ إلى هنا أبداً. هل فهمت؟

- ولكن هذا مورد رزقي.

- أرض الله واسعة.

أراد أن يردّ عليهما بأن الله على ما يبدو لا يحبّ الفقراء وأنّ أرض الله واسعة فقط للأثرياء. قال في نفسه: "لا داعي لتعقيد وضعي؛ فهم قادرون على توقيفي بتهمة الإلحاد".

ربّما لم يكن ملحداً، ولكن منذ أن تدخّل الأصوليون في كلّ مكان تقريباً، ابتعد عنهم. كان والده معتاداً أن يقول له: "قدر المؤمن الشقاء؛ إن الله يمتحنه؛ فعليك بالصبر، يا بني!".

11

في اللحظة التي كان يهمّ فيها محمد بالرحيل، وقفت سيارة بجانبه. طلب منه الرجل، الذي بدا مستعجلاً، أن يزن البضاعة ويضعها في سلّة كبيرة مدّها نحوه: "سأشتري منك كلّ البضاعة. لدينا حفلة اليوم، لقد نجح ابني في شهادة الثانوية، هل فهمت، سوف أبعثه للدراسة في أمريكا، نعم يا سيدي، إلى أمريكا، لأنّ هنا، تدرس ليلاً ونهاراً ثمّ لا يوجد عمل، ولكن حينما تأتي بشهادة أمريكية، يتلقّفونك فوراً؛ أنا سعيد، هذا ابني الوحيد، أمّا البنات فلا أحسبهنّ، لا أستطيع تزويجهنّ، لا أحد يقبل بهنّ... حسناً، أسرع، بسرعة، بسرعة. كم ثمن البضاعة؟ احسب بسرعة، إن أردت سأساعدك". أخرج هاتفه النقّال وأخذ يجمع الأرقام التي يوردها محمد. "حسناً، المجموع 253 ريالاً. تفضّل: ثلاثمائة ريال. أنت تستحقّها. أنت ولدٌ طيّب".

دفع محمد عربته وتوجّه إلى سوق البيع بالجملة. لن يذهب إلى بوشعيب مرّة أخرى. سيدفع قيمة البضاعة نقداً.

12

بعد الظهيرة، صفّ عربته وراح ينتظر زينب أمام مخرج مكان عملها. اكتشف هناك حشداً كبيراً من الشباب الحيويين. كان مذهولاً بعدد المهن الصغيرة التي يبتدعها الشباب لتأمين لقمة عيشهم: كان هناك بائعو سجائر أمريكية بالمفرّق؛ غاسلو سيارات بسرعة فائقة؛ مرافقو مسنّين يحتاجون للمساعدة، بائعو بطاقات بريد رسموها بأنفسهم؛ صانعو ألعاب من علب الليمونادة. بائعو خرائط البلاد وصور مايكل جاكسون وبن هاربر؛ مهرجون يرتدون ألبسة حمرًا ويقومون باستعراضات وخدع؛ مروضو قردة وببغاوات؛ وآخرون يعرضون أفلام DVD مقرصنة ، أفلام لكلّ الأذواق ، أفلام هندية وأمريكية حديثة وكلاسيكية ومصرية وفرنسية؛ كما كان هناك رواة علّقوا لواقط الصوت على ثنية ستراتهم... لم يكن ينقص سوى حوات الثعابين والعرافات والسحرة والمشعوذين. ثمّ فجأةً ساد

الرعب. ركض جميع الشباب للإفلات من رجال الأمن الذين لاحقوهم. قبضوا على اثنين منهم، مروّض الببغاوات وبائع أقراص DVD. انهالوا عليهما ضرباً وشتماً. كان الببغاء يصرخ. وسُحِقَت أقراص DVD. كان هناك على نحوٍ خاصّ فيلم سبارتاكوس الذي يمثّله كيرك دوغلاس. لم يبق من الفيلم سوى غلافه. نُقِل الشخصان إلى شاحنة صغيرة لـ "الأمن الوطني". تملّكت محمد رغبة في الصراخ ولكنّه فكّر في أمّه وفي كلّ العائلة. ابتلع غضبه وقال في نفسه: "يجب أن أقابل زينب".

كان سعيداً بلقائها. روى لها نهاره وتجنّب الحديث عن هجوم الشرطة على البائعين الصغار؛ عرض عليها الذهاب لتناول السمك في مطعم شعبي بالميناء. كانا يضحكان كطفلين تائهين وسط مرجٍ رائعٍ ذات يومٍ ربيعي. قال لها: "لقد هزمت الشرطة سبارتاكوس! لقد سُحِق تحت عجلات شاحنتهم".

13

عادا مشياً على الأقدام. في الطريق، شاهدا أطفال شوارع يضرمون ناراً ليتدفأوا. طلب أحدهم سيجارة. "أنا لا أدخّن، ولكن تفضّل وخذ هذه لتشتري شيئاً تأكله".

كانت شاحنات صغيرة للأمن الوطني تجول ببطء. كانوا يراقبون بغايا. لاحظت زينب أنّ إحدى الفتيات تدسّ ورقة نقدية في جيب أحد رجال الشرطة. هذا أمرٌ مألوف. هكذا تسير الأمور.

عادا للحديث عن الزواج.

- يجب أن ننتظر؛ بالكاد بدأت بالعمل. يجب أن أنجح في مشروعٍ ضخم.

- عمّا تريد أن تتحدّث؟

- كلا، ليس عن سطوٍ مسلّح! ولكنني أودّ أن أفتح

حانوتاً في السوق. أعلم أن أحد جيراننا مريض؛ لديه حانوت في موقعٍ جيّد في السوق المركزية. سيكون رائعاً إن تنازل لي عنه. سوف أدفع له بالتقسيط؛ لقد استعلمت عن الأمر وعلمت أن أبناءه لا يريدون متابعة عمله، فهم مهندسون وتقنيون ولا مشكلة عمل لديهم. سيكون الأمر مثالياً. لقد قرّرت والدتي أن تحدّثه في الأمر.

- أنت محقّ. ولكنني ضقتُ ذرعاً بالانتظار. يلزمنا مكانٌ لنا، حتى وإن كان كوخاً، لا شيء سوى كوّة صغيرة، غرفة للمهملات...

14

في البيت، كان التلفاز القديم يعرض برنامجاً يحتفل بالذكرى الثلاثين لعهد رئيس الجمهورية. كان يُشاهده برفقة زوجته التي ازدادت وزناً. كانا متزيّنين ومرتديين لأجمل ثيابٍ ونظيفين جداً ومسّرحي الشعر مع ابتسامة عريضة وراضية. كانت الكاميرا تتابعهما في قصرهما عبر حدائق رائعة ذات أشجار منسّقة بدقّة فائقة وفيها مرشّات آليّة ترشّ الماء على المرج الأخضر. علّقت زوجة الرئيس: "زوجي يعمل كثيراً، يجب أن أرغمه على أخذ لحظاتٍ من الراحة؛ الحمد لله، أحوال البلد جيّدة، والمواطنون شاكرون؛ يعبّرون لنا كلّ يوم عن مساندتهم، لأنّهم يدركون أنّ البلد تتقدّم وتزدهر!". أعطى الرئيس إشارة من يده وكأنّه يحيّي طفلاً. كانت تلك المشاهد مترافقة بموسيقى وتّرت أعصاب محمد. نامت والدته وتهيّأ أخوته وأخواته للذهاب إلى النوم. أطلعه ياسين على تنويهه

المدرسي، فقرأ فيه: "تلميذٌ ذكيّ وموهوب ولكنّه خامل، يمكنه أن يحقّق أفضل من هذا...". مازحه ياسين ثمّ قال: "أنا أضجر في الصفّ؛ مهما يكن من أمر، ما الجدوى من الدراسة، لقد رأيت بنفسك، لقد اجتهدت ودرست كمجنون وبعد ذلك لم تحصل على عمل، فأخذت عربة بابا".

حاول محمد أن يمنحه قليلاً من الأمل ولكن كان ذلك صعباً. كان هناك الكثير من الظلم والجور في البلاد، الكثير من التفاوت والإذلال.

روى له ياسين بأنّ لدى عودته من المدرسة شاهد رجلاً يضربه رجال الشرطة. كان يصرخ، توقّف الناس ولكن لم يتدخّل أحد. "لقد عرفته، إنّه بواب العمارة الزجاجية التي تقع على الطرف الثاني من حارتنا، والذي طردوه أصحابها لسبب غير معروف؛ أمّا هذه المرّة، فقد سرق دجاجة، كان أمراً غريباً، كانت الدجاجة تصرخ مثله لأنّه لم يشأ أن يتركها. لقد انهالوا عليه ضرباً...".

15

غادر محمد في الصباح الباكر لشراء بضاعته. وسّع خياراته من الفاكهة. لدى خروجه من السوق، صادف رفيقاً سابقاً في النضال، كان قد توظّف في البلدية.

- في البلدية، لا أفعل شيئاً. أنا في مكتبٍ مع أربعة موظّفين آخرين، بعض الموظّفين لديهم ملفات يعملون عليها، أمّا أنا فليس لديّ شيء، فأشعر بالملل. لم تُدفع لي رواتبي منذ ستّة أشهر. أعيش بالدَين. أعتقد بأنّنا نُسمّى المجازين فقط لإسكاتنا ولكن في الحقيقة لا وظائف لديهم لنا. وأنت كيف حالك؟

- كما ترى.

ودّعا بعضهما. بعد عِشر دقائق، بينما كان محمد ينتظر عند إشارة حمراء، طلب منه رجلان بالزي المدني أن يصفّ جانباً.

- ماذا كنتما تقولان لبعضكما، أنت وصديقك؟

- لا شيء.

فاجأته الصفعة الأولى. صرخ محمد وتلقى لكمة في بطنه.

- أسكت. هيّا. ما اسم صديقك؟

- لقد نسيتُ اسمه.

تلقّى صفعة أخرى. توقّف مارّة. طردهم أحد الشرطيين مهدداً:

- انصرفوا! هذا لصّ، نفعل هذا لحمايتكم، إذاً دعونا نقوم بعملنا.

صرخ محمد: "هذا ليس صحيحاً! لستُ لصّاً!".

حينما رأى الناسَ يتقدّمون، قلب أحد الشرطيين العربة وتُرِك محمد وحمولته على الأرض.

واساه الناس وساعدوه في التقاط فاكهته؛ كانت الفراولة قد تلفت؛ تحدّث الناس:

- هذا أمرٌ كريه! يا للعار! الهجوم على بائعٍ مسكين...

- يتصرّفون كما في الأفلام مع المافيا... يريدون نسبتهم، السفلة!

- لم يعد من الممكن أن يستمرّ هذا الوضع! ذات يوم، سيُظهر الله الحقيقة.

- الله مع الأغنياء!

نشبت مجادلات.

- كافر! عديم الإيمان! الله مع الجميع! الله موجود في كلّ مكان.

أراد الناس أن يشتروا فاكهته تضامناً معه. قدّم لهم علب الفراولة.

لم يعد محمد يرغب في العمل، كان مشمئزاً. عاد إلى بيته وصفّ عربته وقرّر أن يستغلّ غياب أخوته لينام ويرتاح قليلاً. حلم بوالده مرتدياً لباساً أبيض بالكامل ويشير إليه أن ينضمّ إليه. كان يتكلّم ولكن محمّد لم يكن يسمعه. لم يكن يرغب في لقاء المرحوم. فجأةً ظهرت والدته وقالت له: "لا تبالي بما يطلبه منك؛ إنّه عند الله، ربّما في الجنة".

في الصباح استيقظ منزعجاً لأنّ الحلم كان أقرب إلى الواقع.

16

حان الوقت ليكون لكلّ منهما، زينب وهو، هاتف نقّال. اشترى محمد هاتفين رخيصين من سوقٍ شعبية. هاتفان نقّالان بسيطان. وحجز خطّين بلا اشتراك يعملان ببطاقات شحن يسمحان له بتلقّي المكالمات وإن نفد رصيده. كما قرّر محمد أن يحسّن بسطته. ثبّت على أحد جوانبها عصّارة برتقال يدوية لإعداد العصير. وعلى الجانب الآخر، رتّب فاكهة متنوّعة. كما علّق لائحة أسعار. وزيّنها بصورة للمطربة أم كلثوم. بل واشترى طرّادة ذباب.

كان محكوماً على محمد أن يكون بائعاً متجولاً، نظراً لأنّ كلّ الأماكن المناسبة كانت مشغولة من المتعاملين مع الشرطة. ولكنّه قرّر، هذا الصباح، أن يعود إلى أطراف المستشفى حيث باع كمية لا بأس بها من البضاعة. ثمّ جاء رجلا شرطة وحاما حوله.

- أم كلثوم! أتحب صوتها؟ نحن أيضاً. ولكن لماذا وضعت صورة مغنّية قديمة ميّتة منذ زمنٍ طويل وليس صورة رئيسنا المحبوب؟ أعطاه الله الصحّة والعافية!

- لم أفكّر في ذلك. إذا أردتم سأنزع صورة المغنية.

- كلا، إبقِها، وضَعْ فوقها صورة جميلة لرئيسنا الغالي، لتكن أكبر من صورة أم كلثوم. اتفقنا؟

- اتفقنا.

غادر الشرطيان. تملّكه عرقٌ بارد. كان يعاني من هذه المضايقات يومياً تقريباً. اتّصل بزينب وأخبرها بالحادثة.

- يريدونك أن تستسلم. هؤلاء أقذار. فاسدون حتى العظم. تعجبني مقاومتك.

- هل لديّ الخيار؟

- حسناً، هل سنلتقي هذا المساء؟

- نعم، إلى اللقاء هذا المساء.

وجد جريدة قديمة عليها صورة شخصية للرئيس مطبوعة على صفحة كاملة وحاول تعليقها على البسطة. ولكنّ الصفحة كانت تسقط في كلّ مرة. فطواها وضبّها تحت أحد الصناديق. سيخرجها إذا ما طالبوه من جديد بصورة الرئيس.

17

بينما كان محمد ينتظر زبائنه في شارعٍ مزدحم، توقّف بائع صحف ومدّ نحوه صحيفة باللغة العربية كُتِبَ على صفحتها الأولى: "فضيحة: نائب من الأكثرية يحتال على مجازين عاطلين عن العمل بجعلهم يملأون استمارات للهجرة إلى كندا؛ 500 ريال لقاء كل استمارة؛ 252 ضحية؛ لم تتعرّض الشرطة للنائب".

كان محمد على علمٍ بذلك الاحتيال الذي كاد أن يكون من ضحاياه - لكنّه لم ينجح قط في جمع المبلغ المطلوب مقابل "نفقات الاستمارة".

قال له بائع الصحف:

- أنت ترى، يمكن كتابة كلّ شي وفضح كلّ شيء ولكن لا جدوى من هذا؛ لا يزال السافل نائباً؛ لقد جمع الكثير من المال ولم تتخذ العدالة أيّ إجراء ضده.

- أتعلم، سوف لن أتفاجأ إذا ما مزّق أحد ضحاياه حنجرته؛ ففي النهاية، يمكن للمرء دائماً أن يحقّق العدالة لنفسه بنفسه.

بدرت من البائع حركة هلع.

أدرك محمد أنّ الشرطة ستشنّ غارة؛ فأخذ يدفع عربته بكلّ ما أوتي من قوّة واختبأ في زقاقٍ ضيّق.

كانت قططٌ تتنازع حول حاوية مقلوبة؛ وكان أطفالٌ يلعبون بمسدسات بلاستيك. تنفّس من أعماق رئتيه، تربّع وأمسك برأسه بين يديه؛ تملّكته رغبة في أن يقلب كلّ شيء وينتهي من كلّ شيء مرّة واحدة وإلى الأبد. ولكنّه عاد وفكّر في والدته، وتراءى له وجه زينب وأخوته وأخواته... نهض وخرج إلى الشارع العريض.

18

مضى أكثر من شهر ومحمد يواصل العمل رغم الفخاخ العديدة التي اعترضته. ولكن هذا الصباح، واجهه فأل سيىء. حينما أخرج عربته، اكتشف أن إحدى عجلاتها قد فُكّت. لم يدرِ إن كان ذلك صدفةً أم بفعل عملٍ تخريبي. فقد واجه مشاكل مع بعض جيرانه أخذوا عليه انتقاداته للنظام. ذات يوم، قال له الزوج:

- إذا واصلت هكذا تتحدّث بسوءٍ عن الحكومة، ستجلب لنا إزعاجات؛ ما بك تنتقد كلّ شيء؛ أتريد أن يكون الجميع أثرياء؟ أنت شيوعي، أليس كذلك؟ من مصلحتك أن تهدأ، لأنّه حينما توقف الشرطة أحداً في هذا البلد، لا أحد يعلم ما سيحلّ به.

- ها أنت أيضاً تنتقد الحكومة.

- كلا، أنا أؤكّد؛ أنا بخير، الحياة جميلة.

وأخذ يصرخ بأعلى صوته: "عاش الرئيس، عاشت الرئيسة...".

باشر محمد بإصلاح عجلة عربته. أحاط به أطفالٌ. أراد الجميع أن يساعدوه. أُصلِحَت العربة سريعاً وانصرف بها.

في أوّل ملتقى طرق، أوقفه شرطي.

- إلى أين تذهب هكذا؟

- سأعمل.

- هل لديك رخصة عمل؟

- أنت تعلم جيّداً أنها غير موجودة.

- نعم، أعلم، ولكن يمكن لذلك أن يكون موجوداً بأشكالٍ أخرى.

تظاهر محمد بأنّه لم يفهم.

قال الشرطي:

- إنّها غلطتك، قد يكلّفك هذا غالياً جداً... في ما بعد.

غادر محمد من دون أن يلتفت إلى الوراء. صادف موكب تشييع. كان الحشد ضخماً وكان بعض الأشخاص يرفعون العلم الوطني.

سأل محمد عن الشخص المتوفى:

- رجلٌ مسكين، مثلك ومثلي. لا نعلم بالضبط في أيّة ظروف تمّ توقيفه في الأسبوع الماضي لمسألة تتعلّق بالانترنت؛ ثمّ استلم ذووه جثّته البارحة؛ كانت قد رُميت أمام باب بيتهم.

- قتلته الشرطة؟

قال الرجل بصوتٍ خفيض:

- بالتأكيد، ولكن ليست هناك أدلّة. كان شخصاً رائعاً، يعمل في مقهى، ثمّ في المساءِ يواظب على الانترنت.

تابع محمد موكب الجنازة وهو يدفع عربته. لاحظ أنّ رجال شرطة بالزي المدني يلتقطون صوراً. بعد الدفن، ذهب إلى سوق الجملة.

19

كان المشهد عنيفاً حتى إنّه لم يحظ بالوقت لينهض. ألقى به شرطيان بالزي الرسمي، أحدهما امرأة، أرضاً واستولوا على عربته:

- مصادَرة!

- نعم، ليس لك الحقّ أن تبيع بطريقة مخالفة، لا تملك رخصة، ولا شهادة مهنية، ولا تدفع ضرائب، أنت تسرق الدولة، وبالتالي هذا يكفي، لقد صادرنا عربتك.

قالت الشرطية:

- الآن ارحل. سوف تتلقى مذكّرة للمثول أمام المحكمة. هيا، اهرب!

ظلّ محمد مطروحاً أرضاً لأنّ الشرطي الآخر استمرّ في ركله.

توقّف فضوليون. احتجّ البعض. هدّدهم الشرطيان. توقّفت سيارة جيب. نزل منها ضابط؛ استفسر عن الوضع ثمّ صعد إلى سيارته وتوارى. ثمّ توقّفت شاحنة صغيرة للشرطة. نزل منها رجال شرطة آخرون ولملموا البضاعة التي كانت قد سقطت من العربة. أخذ أحدهم بعض البضاعة وقضم تفاحة.

لم يتفوّه محمد المنهَك بكلمة ثمّ فرّ من المكان. شرد في الشوارع مذهولاً لما حدث له، عاجزاً عن التفكير. من دون تدبير منه، قادته خطواته نحو البلدية. طلب التحدّث إلى رئيس البلدية. أدار الحاجب إصبعه نحو صدغه ليشير له بأنّه مجنون:

- أتعتقد بأنّك ستقابل رئيس البلدية بهذه السهولة؟

- لم لا، يجب أن أتحدّث إليه.

- مَنْ أنت لتحدّثه؟ هل أنت ثري؟ هل أنت شخصٌ مهمّ؟ هيا، إذهب، دعني أشرب الشاي بهدوء.

ألحّ محمد في طلبه.

- إذاً فلأتحدّث إلى نائبه...

- الجميع خارج البلدية، المحافظ يدشّن مسجداً جديداً.

- وغداً؟

- إذا أردتَ نصيحتي، دعك من الأمر...

- حسناً، ولكن قبل ذلك يجب أن أشرح لك لماذا أريد مقابلة رئيس البلدية.

- لماذا؟

- لقد صادرت الشرطة وسيلة عملي، العربة التي أبيع عليها فاكهة. إنّها مورد رزقي.

- وتعتقد أن رئيس البلدية سيختلف مع الشرطة لأجل عينيك الجميلتين؟

- لأجل العدالة.

قال الحاجب، وقد خفّض صوته قليلاً:

- غريبٌ أمرك! أين نشأت؟ أين وجدت العدالة في هذا البلد؟

ثمّ قام بجولة في المبنى وعاد بعد لحظات متسلّحاً بهراوة.

- إرحل! وإلاّ سأهشّم وجهك الجميل.

لم يعد محمد يلحّ.

20

في المساء، التقى زينب. اقترحت أن ترافقه إلى رئيس البلدية. كانت لديها فكرة أخرى:

- ماذا لو ذهبنا مباشرة إلى رئيس قسم الشرطة؟

- لم لا؟

ذهبا إلى المفوضية المركزية للشرطة. لم يكن أحدٌ من رجال الشرطة على علمٍ بحكايته.

تكلّمت زينب أوّلاً.

- إذا كان الأمر هكذا، ستتقدّم بشكوى بتهمة السرقة!

ردّ الشرطي بابتسامة لئيمة:

- ستتقدّمين بشكوى ضدّ الشرطة؟ أين تعتقدين نفسك، في السويد؟

- نريد فقط أن نستردّ مورد رزقنا.

- أنا أتفهّم موقفكما، أعطياني بطاقتيكما الشخصيتين لأصوّرهما، وسوف أتّصل بكما إن استجدّ أمر. لم تثق زينب به فرفضت وسحبت محمّد من ذراعه وانصرفا. سارا مطوّلاً في الشوارع. شبكا يديهما، وأحياناً استندا إلى بعضهما. توقّفت سيارة بجانبهما. كان فيها رجال شرطة بالزي المدني:

- أوراقكما.

- ولكنّكما لستما متزوّجين. من غير المشروع السير في هذا الوقت في الشوارع المقفرة.

تخابثت زينب وتوسّلت أن لا يفضحوهما:

- والدي قاسٍ جداً. من فضلكم، دعونا، سنعود إلى البيت، لم نرتكب أيّ خطأ .

- حسناً. انصرفا، لا بأس هذه المرّة فقط.

عاد كلّ منهما إلى بيته. قضى محمد ليلة مضطربة جداً؛ لم يروِ ما حدث لوالدته لأنّ والده كان قد أخبره بأنّ الانزعاج يرفع نسبة السكّر في دمها.

21

في الصباح الباكر، دخل محمد إلى المرحاض. للمرّة الأولى منذ وفاة والده، قرّر أن يصلّي. بدّل ثيابه وارتدى ألبسة بيضًا بالكامل. كانت والدته نائمة، فاقترب منها وقبّل جبينها من دون أن يوقظها. ألقى نظرةً على أخوته وأخواته. خرج مسرعاً. استعار الدراجة القديمة لشقيقه، توقّف في محطّة للوقود وطلب ملء قارورة مياه بلاستيك فارغة بالنفط. وضع القارورة في خرجٍ وانطلق نحو البلدية.

هناك، طلب أن يقابل مسؤولاً. لم يشأ أحدٌ أن يستقبله. عاد إلى المكان الذي صادر فيه الشرطيان عربته. كانا هناك، والعربة مركونة في زاوية. كانت فارغة.

تقدّم محمد منهما وطلب استرداد ملكه.

صفعه الشرطي بقوّة شاتماً:

- خذ أيّها الجرذ، أهرب من هنا قبل أن أمزق أحشاءك، هيا أسرع!

بدرت من محمد حركة للدفاع عن نفسه. صفعته الشرطية بدورها وبصقت في وجهه:

- أيّها القذر، لقد أفسدت علينا فطورنا، يا سيىء التربية، يا عديم الأصل...

كان محمد خائر القوى. لم يعد يتكلّم ولا يتحرّك وتجمّد وجهه واحمرّت عيناه واصطكّ فكّاه، شيءٌ ما سينفجر، ظلّ في تلك الحالة لدقيقتين أو ثلاث، وكأنّه الأزل.

قال الشرطي:

- هيا إرحل، لن ترى عربتك ثانية. انتهى الأمر، لقد انتقصت من احترامنا. وهذا له ثمنه في بلدنا الحبيب.

جفّ فم محمد وشعر بطعم المرارة. كان يتنفّس بصعوبة. قال في نفسه: "لو كنت أملك سلاحاً، لأفرغت كلّ ذخيرته في هذين السافلين. لا أملك سلاحاً، ولكنني لا زلتُ أملك جسدي، حياتي، حياتي البائسة، هذا هو سلاحي..."

22

ابتعد محمد عن المكان. قاد دراجته وعاد باتّجاه البلدية. ما إن وصل، ربط الدراجة بعمودٍ، وطلب من جديد أن يلتقي برئيس البلدية أو بأحد معاونيه. كان الحاجب أكثر غضباً من اليوم السابق. فكّر محمد بقارورة النفط الموجودة في خرجه، ورتّب ثيابه البيض وقام بجولة في المكان. لم يلحظ الناس وجوده .

كان صباحاً كانونياً مشمساً. 17 ديسمبر/ كانون الأول. تدافعت صورٌ كثيرة في رأسه بغموضٍ كبير: صورة والدته الطريحة الفراش، والده الممدّد في التابوت، صورته وهو في كلية الآداب، صورة زينب المبتسمة، زينب الغاضبة، زينب التي تترجّاه ألاّ يفعل شيئاً، صورة والدته التي تنهض وهي تطالبه؛ وجه المرأة التي صفعته؛ التي تصفعه من جديد، صورة جسده المنحني إلى الأمام وكأنّه ينذر نفسه لجلاّد؛ صورة

السماء الزرقاء، صورة شجرة وارفة تحميه؛ وهو بين ذراعي زينب تحت ظلالها؛ صورته وهو طفلٌ يركض لئلا يتأخّر عن المدرسة؛ صورة معلّم اللغة الفرنسية وهو يمتدحه؛ صورة امتحاناته في الكلية؛ والشهادة التي عرضها على والديه؛ الشهادة المعلّقة على لوحةٍ كتِبَ عليها "عاطل عن العمل"؛ شهادته وهي تحترق في مجلى بيته؛ صورة دفن والده من جديد؛ زقزقة العصافير، صورة الرئيس وزوجته بنظارتيهما الكبيرتين السوداوين؛ صورة المرأة التي صفعته؛ والآخر الذي شتمه... صورة سربٍ من عصافير الدوري وهي تعبر السماء؛ صورة سبارتاكوس؛ صورة سبيل ماء؛ صورة والدته وشقيقتيه وهما تقفان في الدور لأخذ بعض الماء؛ ومرّة أخرى رجال الشرطة القساة؛ شتائم؛ لكمات؛ شتائم؛ لكمات...

للمرّة الأخيرة، طلب أن يستقبله رئيس البلدية. فلاقى الرفض والشتائم. دفعه الحاجب بهراوته وأسقطه أرضاً. ثمّ نهض محمد بصمت. ذهب ووقف تماماً قبالة المدخل الرئيسي لدار البلدية، أخرج قارورة النفط من خرجه وصبّها فوق رأسه وحتى أخمص قدميه إلى أن فرغت القارورة. ومن ثمّ، أشعل قداحته الحمراء من طراز بيك، نظر إلى اللهب للحظة ثمّ قرّبه من ثيابه. فاشتعلت النيران فوراً. مرّت بضع دقائق. هرع الناس. كان حاجب رئيس البلدية يصرخ ويحاول إخماد النيران بسترته. تحوّل محمد إلى مشعل. حينما وصلت سيارة الإسعاف، كانت

النيران قد انطفأت. ولكن محمد كان قد فقد كلّ تشابهٍ مع كائن بشري. كان أشبه بخروفٍ مشوي، أسود اللون بالكامل.

ناح الحاجب:

- كلّ هذا بسبب خطأي؛ كان عليّ أن أساعده...

23

محمد في المستشفى. كلّ جسمه ملفوف بالضمادات. وكأنّه في كفن. إنّه في غيبوبة. دبّت الحركة في الممرات. هرع أطباء يرتدون بزّات بيضًا وممرضات في الممرّ المؤدّي إلى غرفة محمد. الرئيس هنا؛ جاء الرئيس يستخبر عن مصير محمد. الرئيس ليس سعيداً. سأل عن رئيس البلدية الذي رفض استقباله. وأمر بطرده من الوظيفة. الرئيس غاضب. فهو يعلم أنّ الصحافة العالمية تتحدّث عن القضية.

دخل الرئيس متبوعاً بحشدٍ من الأطباء إلى الغرفة. مشاهد مقذعة ومضحكة. البلد برمّته منتفضٌ. تقود زينب مربوطة الشعر تظاهرةً. تصرخ، تزعق، ترفع قبضتها.

توفّى محمد في 4 يناير/ كانون الثاني 2011. خرجت تظاهرات في كلّ مكان وهي تهتف: "كلّنا محمد". غادر الرئيس البلاد مثل لصّ. تاهت طائرته وسط الليل المرصّع بالنجوم.

24

عمّت التظاهرات البلاد.

صورة محمد، الضحية والرمز.

توافدت تلفزيونات العالم أجمع على البلاد وزارت أسرته.

حتى أنّ منتجاً سينمائياً جاء لمقابلة أفراد أسرته. قدّم مغلّفاً للأمّ الباكية وقال:

- تقبّلي هذه المساعدة؛ هذا ليس شيئاً، ولكن هكذا هو القدر، قاسٍ وظالم.

انحنى وهمس في أذن السيّدة العجوز الحزينة:

- لا تتحدّثوا في الأمر لأحدٍ؛ لا تدلوا بأيّ مقابلة للصحافيين؛ سأساعدكم؛ أنا من سأروي حكاية محمد، يجب أن يعلم العالم أجمع ما حدث؛ محمد بطل، ضحية وشهيد. هل اتّفقنا؟ ستتحدّثون إليّ وإليّ فقط. سأترككم الآن، ومن

ثمّ، إن احتجتم لأيّ شيء كان، هذه هي أرقام هواتفي، وهذا هاتفٌ نقّال للاتصال بي.

لم تفهم الأمّ أيّ شيء مما قاله هذا الشخص. ولكن ابنتيها أدركتا كلّ شي: هذا الرجل يتاجر بموت أخينا ليجني ثروةً! يا للهول! يا للهول! حكاية محمد لا تخصّ أحداً؛ إنّها حكاية رجلٍ بسيط، كملايين البسطاء، والذي لفرط ما سُحِقَ وأُهين، وأُنكِر في حياته، انتهى إلى أن أصبح الشرارة التي أشعلت العالم. أبداً لن يسرق أحدٌ موته.

الطّاهر بنجلّون

الشّرارة ويليها بالنّار

تعصف بالعالم العربي ثورة غير مسبوقة منذ نوفمبر 2010. ولكن من هم الفاعلون الحقيقيون فيها؟ كيف انهارت أنظمة دكتاتورية في بضعة أشهر؟ ما هي فرص نجاح هذه الثورات؟ هذه هي الأسئلة التي يجيب عليها الطّاهر بنجلّون في هذه المحاولة الكتابية التي قام بها في أثناء الأزمة حول موضوعٍ يعرفه جيداً ويهمّه جداً أن يشرحه بعمق.

رواية «بالنّار» تتابع هذا التحليل: في السابع عشر من ديسمبر، أوقد محمد البوعزيزي النار في جسده. كان هذا التصرّف الراديكالي بمثابة إشارة اندلاع ثورة الياسمين في تونس. يعيد الطّاهر بنجلّون، في تخييلٍ موجز، واقعيّ وشاعري، تشكيل الأيام التي سبقت هذه التضحية. في تكريم رائعٍ للثورات العربية ولهؤلاء الملايين من الرجال والنساء المجهولين الذين ينزلون إلى الشوارع ويطالبون بالحرية والكرامة في بلدانهم.

ولد الطّاهر بنجلّون عام 1944 في مدينة فاس المغربية. وهو كاتبٌ وصحافي وشاعر، وقد نال جائزة غونكور الفرنسية على روايته «ليلة القدر».

علي مولا

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)

بيروت: ص.ب 113/5158

markaz@wanadoo.net.ma

cca_casa_bey@yahoo.com

ISBN 9953-68-545-2

9789953685458